فى الأدب والنقد

« ٧ »



ترجمة

الدكتور على محمد الجندى

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

٩ شارع كامل صدقى

برهو عبد الله

الأدب والنقد
«٧»

الذوق الأدبى
كيف يتكون

تأليف
أرنولد بنيت

ترجمة
الدكتور على محمد الجندى
المدرس بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٥ شارع كامل صدقى

تصـــدير

بقـلم

الأستاذ عمر الدسوقي

إن موضوع الذوق الأدبي الذى يعرض له هذا الكتاب القيم ، ويبين فيه المنهج السليم لتربية الذوق الأدبي لدى القارىء والأديب على السواء لمن أهم الموضوعات التي يجب أن نوليها عناية فائقة في عصرنا هذا الذى طغت فيه المادة على كل شيء في حياتنا وصبغتها بصبغة جافة بشعة ، حتى نادى بعض أدعياء الإصلاح في مصر أنها لن تنهض إلاّ إذا تركنا الأدب ودراسته وإنتاجه ، وأقبلنا بكل جهودنا على دراسة العلوم التجريبية لنجارى الغرب في حضارته . وقد فاته أهمية الأدب للحياة ، كما فاته أن المواهب متباينة ، وأنه لا يوجد شعب من شعوب الأرض يصلح كل أفراده لدراسة العلوم والتبريز فيها ، وأن الفنون الجميلة وعلى رأسها الأدب واحات نضرة في دنيا المادة الجافة يستروح فيها الناس أريجاً عطراً ، وظلا ظليلاً فتخفف عنهم خشونة الحياة التي يحيونها ، والأعمال التي يزاولونها في حضارة تتصارع فيها القوى المادية صراع الجبابرة في كل مرفق من مرافق الحياة . وترتفع بالنفس الإنسانية التي آدها هذا الصراع إلى آفاق فسيحة وعوالم سامية من الحقائق الفنية والجمال والحق والخير ، وتقف فيها على تجارب الآخرين وكفاحهم وآلامهم وآمالهم ونجاحهم وإخفاقهم فتفيد لذة وخبرة

وانتعاشا يعينها على المضى فى طريق الحياة الذى ازداد توعراً وجساوة فى عصرنا هذا .

وتتجلى لنا أهمية هذا الموضوع كذلك حين نستعرض الذوق الأدبى العام فى مصر فنجده قد انحرف انحرافاً كبيراً عن جادة الصواب ، وأنه قد انحط وفسد ، وصار يؤثر الأدب الرخيص الذى يثير الغرائز الدنيا فى الإنسان ، ويصور المجتمعات الشاذة التى تنفر منها الإنسانية السليمة ، والذى يكتب بأسلوب سقيم ليس فيه أدنى سمة من سمات الجمال الفنى ، بل قد يصل فى كثير من الأحيان إلى الركاكة والغثاثة ؛ ولا يعنى هذا أن ثمة فئة قليلة العدد لا تزال تحرص على قراءة الأدب الرفيع ، وتتخير لغذائها العقلى والروحى أشهى وأرق ما تقدمه المطبعة ، وتربأ بنفسها أن تنحدر إلى مثل هذا الدرك . وكان من الطبيعى أن نجد أدباء يعملون جادين على تملق هذا الذوق العام المنحرف ، فيقدمون له فى إسراف بالغ لغواً وغثاء يقبل عليه فى نهم ، ويجدون أنفسهم من ذوى الشهرة لدى الجماهير ، فيغرى هذا غيرهم فينحرفون انحرافهم كى يصيبوا من الشهرة والجاه والمال مثلما أصابوا ، وبذلك نرى انحطاطاً محزناً فى الإنتاج الأدبى فى شتى صوره شعراً ونثراً ، اللهم إلاّ لدى بقية متخلفة من الجيل الماضى ، تعودت أن تجود فى إنتاجها وأن ترتفع به أسلوباً وموضوعاً ، ولكنها لا تجد من القراء إلاّ تلك الفئة القليلة التى تستطيب الأدب السامى .

ولعل كل هذا يرجع إلى إهمالنا الذوق الأدبى وتربيته وتعهده بالصقل والتهذيب والرعاية فى المنزل والمدرسة والحياة ، وإلى أننا فقدنا التوجيه السديد الذى يأخذ بيد القارئ ، ويرشده إلى طريق الصواب وإلى ما يسمو بروحه وعقله وخلقه ، ويأخذ بيد الناشئين فى الأدب فيدلهم على أمثل سبيل ليصلوا إلى الغاية التى

يتطلبها الفن الخالد من سمو وجمال وعمق . فاختفت تلك المجلات الأدبية الراقية التى كانت تعنى بالأدب الرفيع ، ويتبارى على صفحاتها فحول الكتاب والشعراء والباحثين ، وتخصص صفحات طويلة للنقد الأدبى فتميز الخبيث من الطيب ، وترشد إلى مواطن القوة والضعف فى النتاج الأدبى ، ويجد فيها القارىء ناصحاً أميناً وموجهاً حصيفاً يدله على خير ما يقرأ ، ويجد فيها الأديب درساً يفيد منه وصديقاً يستشيره ، ونموذجاً رائماً يحتذيه . جنى عليها ذلك الذوق المنحرف لدى جمهرة القراء ، ولم تستطع الثبات فى الميدان لافتقارها إلى المادة والتشجيع ، ولم تمد لها الدولة يد المساعدة لتواصل أداء رسالتها فى تربية الذوق الأدبى الرفيع ، وجذب الجماهير إليها . وإنه لمن المؤلم حقاً أن تختنق الرسالة والثقافة والكتاب ، أحوج ما نكون إليها وإلى توجيهها السديد .

وإذا كان (أرنولد بنيت) فى كتابه الذى نقدمه للقارىء العربى قد آثر أن يقوّم الذوق الأدبى العام ، وأن يتعرض فى رفق للذوق الأدبى الخاص ، ذوق الشاعر والكاتب ، فلعله رأى بخبرته أنه إذا سلم الذوق الأدبى العام وعرف كيف يميز الخبيث من الطيب ، وأقبل على الأدب القويم حمل الأدباء حملاً على مجاراته والإنتاج له ، وتجويد ثمار قرائحهم ، وتعهد ملكاتهم بمزيد من العناية ليقدموا لهذا الجمهور الممتاز أدباً ممتازاً .

وإن كنت أرى أن الأمر لا يعدو أن يكون حلقة مفرغة فالجمهور يخلق الأدباء ويشكلهم طبقاً لذوقه ، والأدباء كذلك يستطيعون التأثير فى الجماهير ارتفاعاً وانخفاضاً ، والتاريخ حافل بعدد وفير من الأدباء استطاعوا أن يؤثروا بأدبهم فى جيلهم ، بل يشعلوا ثورات ، ويهزوا عروشاً ولأضرب على ذلك مثلاً الأدب فى مصر منذ بداية القرن العشرين حتى قيام الحرب العالمية الثانية . فقد

كان ثمة أدباء فحول استطاعوا فى مدى أربعين عاماً أن يخلقوا نهضة أدبية رائعة فى كل فنون الأدب شعره ونثره ، وكانوا يملكون على الجمهور كل منافذه ، ويحملونه حملاً على أن يستجيب لهم ويتابع إنتاجهم فى شغف ولذة ، والأديب كالمطرب يجيد ويبدع كلما وجد من جمهوره تجاوباً وتشجيعاً . فلما انتهى هذا الجيل من الأدباء الفحول أو كاد ، وخلف من بعدهم خلف ليس لهم مثل مواهبهم وسنهم ، رأى الجمهور نفسه فى شبه فراغ ، وخفتت هذه الأصوات التى كانت تدوى فى أذنيه بأنغام شجية عذبة ، ولم يجد أمامه إلا أصوات هؤلاء الذين صار يصغى إليهم بحكم الضرورة والعادة ، ثم صار يألفهم ويتذوقهم ويعجب بهم ، لأنه لم يجد خيراً منهم ، وصار ثمة تجاوباً بين الأديب والجمهور .

وإذا رجعنا القهقرى إلى الأدب العربى فى عصور الانحطاط والضعف ، حيث تناهى فى الغثاثة والركة والسخف صياغة ومعنى . وصار أشبه بالأحاجى والألغاز ، وجدنا أن هذا الأدب كان يعجب جماهير هذا العصر ، ويحلون أصحابه منزلة عالية فى نفوسهم ؛ لأن ثمة تجاوباً بينهم وبين أدبهم ، ولأن ثقافتهم الضحلة لم تكن تستسيغ أرق من هذا الأدب .

فإذا كانت رعاية الذوق العام لها شأنها وخطرها ، فإن رعاية الذوق الخاص ، ذوق الكاتب والشاعر ، لاتقل عنها أهمية وخطراً .

ولقد أعجبنى من (أرنولد بنيت) عنايته بالأدب الكلاسيكى ، أدب الفحول الأقدمين الذين زاد مرور العصور فى مكانتهم وخلود أدبهم ، ولم تستطع الأيام أن تنال من شهرتهم أو تعفى على إنتاجهم ، بل صار أدبهم كالخمر كلما مر عليها الزمن جادت ، وعظم تأثيرها وارتفعت قيمتها .

ونحن فى عصرنا هذا ، وفى أمتنا العربية ، نعانى مثل هذه المشكلة ، وأعتقد أن من أسباب ضعف الأدب وانحراف أذواق الجماهير انصرافهم عن الأدب الكلاسيكى العربى ، الذى كان له الأثر الأكبر فى نهضة الأدب فى الجيل الماضى سواء عند القراء أم عند الأدباء ، على الرغم من ذلك السيل الجارف من ثقافة الغرب الذى غزا مصر بخاصة والبلاد العربية بعامة . ولعلنا دون كل أمم الأرض أحوج ما نكون إلى إدامة النظر فى هذا التراث والعناية بدراسته ؛ لأن اللغة العربية ليست لغة البيت والسوق ، وإنما تؤخذ بالدراسة والحفظ .

ولقد قامت ثورة من عهد قريب ضد هذا الأدب بدعوى أنه جنى على الأدب العربى جناية بالغة ، وصبغه صبغة واحدة فى جميع العصور ، وحال بين الأدباء وبين التجديد . ولا أدل على بطلان هذه الدعوى من أدباء الجيل الماضى الذين تأثروا بالثقافتين العربية العريقة ، والغربية الوافدة ، فامتزجتا معاً ، ولم تحل بينهم وبين التجديد الواعى الذى يلتئم وأذواق الأمة العربية سواء فى المعانى أو الأخيلة أو القوالب ، مع حفاظ أكثرهم على سلامة اللغة ، ومتانة العبارة ، وروعة الموسيقى ، وقوة الأداء وحسن التصرف فى التعبير ، واستطاعوا أن يمثلوا بأدبهم عصرهم وحضارتهم ، ويشخصوا أدواء أمتهم ، ويعبروا فى أدب رفيع من آمالها وآلامها ويأسها ورجائها ، ونجاحها وإخفاقها ، وأن يطرقوا كثيراً من أبواب الأدب الإنسانى الخالد ، ويحلقوا فى آفاق فسيحة .

ولقد كان الأدب القديم عندهم كالكنز مكنهم من الإنفاق عن سعة ، والتصرف فى سخاء ، فلم تعوزهم العبارة البارعة ، ولا الكلمة الدقيقة ، تسعفهم عند الحاجة إلى التعبير عن معنى جديد أو فكرة عميقة . واستطاع هذا الأدب أن يسمو بأساليبهم وصياغتهم وموسيقاهم . وبذلك ضمنوا له الخلود والتأثير مدى

العصور . لقد كانت لديهم كلماته كاللبنات يستخدمونها فى بناء جديد وهندسة جديدة مبتكرة دون التأثر بتشابيه الأقدمين واستعاراتهم ومجازاتهم ولا سيما عند الفحول منهم .

لقد استطاع البارودى وهو الذى لم يتعلم اللغة فى مدرسة أو يجلس أمام أستاذ ، بدراسته هذا الأدب وتزعه بأشعار الفحول من شعراء العربية ، وحفظه لأروع آثارهم ، أن ينتشل الشعر العربى من وهدة سحيقة وهوة عميقة ويحلق به إلى القمم العالية ليضارع شعر الأفذاذ فى العصر العباسى . ولم يعقه هذا الحفظ من التجديد ، ومن إظهار عاطفته صادقة عميقة فى الوصف والحنين والرثاء والوطنية .

ولقد كان أسلوب شوقى قبل منفاه يتعثر فى خطاه ، ويميل إلى الضعف ، وما أن أتيحت له الفرصة إبان مقامه بالأندلس ليعكف على الأدب القديم ويدخر أطايبه فى ذاكرته ، حتى رأيناه ينطلق كالعملاق ، ويأتى بالمعانى البكر والخيال الشرود فى صياغة ساحرة وموسيقى باهرة ، ويجدد فى القالب والموضوع ، ويصير بحق شاعر العربية الأكبر فى العصر الحديث ، بل يُربى فى فنه وإنتاجه على ما قاله أى شاعر فحل فى العصور السالفة .

وإذا أخذنا (مطران) زعيم المجددين فى الشعر العربى الحديث وجدنا أنه لم يستطع أن يتملك زمام اللغة ويحسن التعبير عن كثير من المعانى الجديدة التى ابتكرها ابتكاراً أو نقلها عن الأدب الأجنبى إلاّ بعد أن وعى فى ذاكرته آلاف الأبيات والأمثال من الأدب القديم .

بل أستطيع أن أسوق لك مثلا أعجب من كل هؤلاء ذلك هو (مصطفى صادق الرافعى) الذى وصفه النقاد المحدثون ظلماً بأنه معرق فى الرجعية ، وأنه شديد الحفاظ على أساليب الأقدمين ، والحق إنه لم يكن رجعياً فى أسلوبه وأدبه على الرغم من أنه أحاط إحاطة العالم الثبت بما خلف السلف من آثار فى الحديث والفقه والتاريخ والأدب ، وعكف فى صباه على مكتبة والده حتى أتى على مابها وهى مكتبة عربية خالصة لأن والده كان قاضياً شرعياً ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يجيد لغة أجنبية بل كان له إلمام محدود بالفرنسية لا يعينه على تذوق آدابها . لقد استطاع مصطفى صادق الرافعى أن يصنع من كلمات اللغة العربية التى وعاها من الأدب القديم الأعاجيب ، وإذا قلت لك إنك تعجز أن تجد له تشبيهاً قديماً أو استعارة تقليدية ، على كثرة ماأتى فى أدبه من تشابيه واستعارات حتى تعدت الألوف زاد عجبك ، وأيقنت ان الأدب القديم لا يجنى على العبقريات بل يمكنها من أن تتوهج وتبدع ماشاء لها الإلهام والفن .

بل أدرك كثير من أدباء المدرسة الحديثة قيمة الاطلاع على الأدب الكلاسيكى ودراسته ، ومداومة النظر فيه حتى تكتسب أساليبهم قوة ورصانة بل إن بعضهم يعد حجة فى هذا الأدب ، يقف على أسراره وما فيه من جمال أو ضعف ، وذلك هو الأستاذ العقاد ، وتراه لا يتسامح أبداً فى اللغة ، ويعيب على أدباء المهجر ، هذا التسامح[1] ، وترى أسلوبه الكتابى رصيناً قوياً وإن مال فى شعره إلى السهولة واللين . وتراه وصديقه المازنى يعجبان أشد الإعجاب بابن الرومى والمتنبى .

---

(١) مقدمة الغربال لميخائيل نعيمة .

واستمع إلى المازني يقول في توفيق الحكيم : « وليس لصديقي الحكيم عيب فيما أرى سوى قلة عنايته بالأدب العربي ، ولست أزعم أنه لا يقرأ من الأدب العربي شيئاً والعياذ بالله ، فإن هذا يكون شططاً لا يغتفر ولا يقبل ولا يعقل ، وإنما أقول إنه لا يعني به كعنايته بالأدب الغربي ».

فيرد عليه توفيق الحكيم لتوه دافعاً عن نفسه هذه التهمة : « فالحق الذي يجب أن يقال : هو أني ماوصلت إلى هذا إلا بعد الاطلاع على الأدب العربي وتأمل له ونظر فيه ، وكل ما في الأمر أني أتناول هذا الأدب تناول رجل الفن لا رجل العلم ولا رجل البحث ، وأني آخذ منه ماينفعني وأمضي به صامتاً إلى فني الذي أمارسه »[1] .

وإذا نظرنا إلى أديب آخر له في التجديد شأن كبير وله مدرسة معجبة به وبأدبه ، وجدناه في نشأته الأولى يأخذ الأدب القديم مأخذ الجد ، ويدرسه دراسة رشيدة ، ويستوعب منه في ذاكرته وقلبه ماشاء ، ثم يمضي به الزمن فيدرس في فرنسا ويحذق اللغة الفرنسية ويقف على آدابها ، وتراه في أدبه المترجم أو الموضوع رصين الأسلوب ، موسيقى العبارة ، مع تجديد واضح ؛ وإغناء للغة العربية في الأساليب والتراكيب والمعاني ، ذلك هو الدكتور طه حسين الذي يعشق الأدب الكلاسيكي العربي ، ويروج له في محاضراته وكتبه بحسن عرضه ، ودقيق ملاحظاته وتعليقاته ونظراته النقدية .

إن العبارة السوقية المبتذلة ، والأساليب الركيكة الغثة التي نشاهدها اليوم في أغلب النتاج الأدبي إنما مردها إلى إهمال الأدب القديم ، والأخذ بأسلوب

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٥٦٢ ص ٣٠١ ، ٣٠٢

الصحافة ، وهو أسلوب إن صلح للصحافة لا يصلح للأدب ، لأن الأدب فن وكل فن صناعة ، إنه طائر ذو جناحين لا ينهض ويحلق إلا بهما معاً : الموهبة والصنعة ، ولن تستطيع الموهبة وحدها أن تخلق أديباً ممتازاً ، بل لا بد له من صنعة تصقل موهبته وتضفى عليها جمالا ، وما الصنعة فى الأدب إلا الكلمة التى تأتى لِفقَ المعنى مختارة منتقاة ، تتلاءم وأخواتها فى جرس موسيقى جذاب لا نبوّ فيه ولا مماطلة ، وتأتلف عباراتها فى نغمة منسجمة تخلب اللب وتأسر القلب وتهيج العاطفة وتطلق الخيال وتؤثر فى القارىء أو السامع الأثر الذى يريده الأديب . والصنعة وحدها من غير ملكة أو موهبة تنتج أدباً متكلفاً لا روح فيه ولا حرارة ولا إبداع ، وإنما هى كلمات مرصوفة ، وجمجمة فارغة .

وإذا كان القارىء فى حاجة إلى من يوجهه ويرشده إلى المنابع العذبة ويبصره بالطريقة التى يفيد بها من هذه الينابيع حتى يتلذذ بقراءته ويستمتع بعطاءاته فينمى ملكاته ، ويزيد من تجاربه ، ويشارك العباقرة فى تأثراتهم وانفعالاتهم وكنوز عقولهم ، وثمرات قرائحهم ، فيحيا حياة إنسانية ممتازة ويعرف كيف يتخير لغذاء عقله كما يتخير لغذاء بطنه . إذا كان القارىء فى حاجة إلى كل هذا — وهو ما يقدمه له الكتاب الذى بين أيدينا — فالأديب الناشىء الذى يحس فى قرارة نفسه أن لديه الموهبة ولكنه لا يدرى كيف يستغلها ويصقلها ويدفعها فى طريق الإنتاج الصحيح فى أمس الحاجة إلى أديب ذى تجربة وقدم راسخة فى دنيا الأدب والشهرة يأخذ بيده ، ويعطيه من ذات نفسه ويرسم له الخطة الرشيدة وفقاً لاستعداده وملكاته ، مثله فى ذلك مثل المغنى والمصور والممثل كل منهم فى حاجة إلى إتقان صنعته ، وإلى دراسة وافية فى فنه ليستثير كل ما لديه من موهبة ، ويبرز فى فنه على قدر استطاعته . فالمغنى ذو الصوت النغل لا يستطيع أن يستثير إعجاب السامعين إلا بعد أن يتعهد صوته بالصقل

والتهذيب ومعرفة أصول الغناء والنغم والتطريب ، وقل مثل هـذا فى المصور والممثل والموسيقار وغيرهم من أهل الفن .

ولقد فطن أدباء العرب إلى هذا التوجيه منذ العصر الجاهلى ، وما الرواية فى أصلها إلا تلمذة ترمى إلى اتقان الصـنعة ، فالشاعر الناشىء كان يختار من بين شعراء جيله أحبهم إلى نفسه ، وأقربهم من طبعه وذوقه فيلازمه ، ويروى شعره ويستمع لنقده وتوجيهه ، إلى أن يحذق الصـنعة ، ويكمل استعداده ، فيستقل بنفسه ، ويصير شاعراً مرموقا له رواة وتلاميذ . ولقد كان زهير بن أبى سلمى راوية لأوس بن حجر ، وكان الحطيئة راوية لزهير وهكذا .

ولما كان عصر الـكتابة والتدوين رأينا نوعا من التوجيه الأدبى يقوم به كبار الـكتاب والأدباء من مثل رسالة (بشر بن المعتمر) أحد زعماء المعتزلة فى التوجيه الخطابى ، ومثل رسالة عبد الحميد الـكاتب إلى أهل صناعة الـكتابة مبيناً لهم ما يلزمهم لصنعتهم من أداة ، وما تتطلبه فى صاحبها من صفات ، ومثل نصيحة أبى تمام للبحترى .

ونرى القاضى الجرجانى صاحب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) يبين العناصر اللازمة للبراعة فى الشعر وأنهـا الطبع والذكاء والرواية ، ثم الدربة ونرى ابن الأثير الموصلى فى كتابه (المثـل السائر فى أدب الـكاتب والشاعر) يعقد فصلا خاصاً لآلات علم البيان وأدواته ، ويرسم منهجاً واضحاً لمن يريد أن يتفوق فى الأدب إذا كانت لديه الموهبة والطبع .

ونرى القلقشندى المصرى صاحب (صبح الأعشى فى صناعة الإنشا) يبين ما يحتاج إليه الـكاتب من المعارف والعـلوم الأدبية والتاريخية والشرعية

والطبيعية)[١] ، ويتطلب من الكاتب الانشائى أن يكون ذا ثقافة واسعة وله إلمام بمعارف شتى .

وإذا تمهلنا فى البحث والتنقيب وجـدنا عشرات الأمثلة على هذا التوجيه الأدبى قام به أدباء ثبتت شهرتهم وعلت مكانتهم لأدباء ناشئين يلتمسون لديهم النصح والتوجيه كما فعل والبة بن الحباب مع أبى نواس ، ومثل نصيحة الخوارزمى محمد بن العباس الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٢٨٣ هـ التى قال فيها : « من روى حوليات زهير ، واعتـذارات النابغة ، وأهاجى الحطيئة وهاشميات الكميت ، وقلائص جرير ، وخمريات أبى نواس ، وتشبيهات ابن المعتز ، وزهـديات أبى العتاهية ، ومراثى أبى تمـام ، ومدائح البحترى ، وروضيات الصنوبرى ، ولطائف كشاجم ولم يخرج إلى الشعر فلا شيب الله قرنه »

ومثل نصيحة ابن الأثير الموصلى للشعراء التى قال فيها : ويستحب للشاعر أن يكون حسن الأخلاق ؛ حلو الشمائل ، مأمون الجانب طلق الوجه ، طلق اليدين ، وإلا فهو كما قيل :

وإن أحق النـاس باللوم شاعر يلوم على البخل الرجال ويبخل

وأن يكثر من حفظ شعر العرب لاشتماله على ذكر أخبارهم وآثارهم وأنسابهم وأحسابهم ، وفى ذلك تقوية لطبعه وبه يعرف المقاصد ويسهل عليه اللفظ ، ويتسع المذهب ، فربما طلب معنى فلا يصل إليه ، وهو ماثل بين يديه ، لضعف آلته . ولا يستغنى عن شعر المولدين المجيدين لما فيه من حلاوة اللفظ وقرب المأخذ وإرشادات الملح ، ووجوه البدائع ، وأن يكون متصرفا فى أنواع الشعر من جد وهزل ، وحلو وجزل ، ومدح وهجاء ، ورثاء وافتخار ، فإذا كان كذلك لم يُمَلّ شعره ، فيحكم له بالتصرف والتقدم .

---

(١) راجع الباب الثالث من الجزء الأول

ويكره الشاعر أن يكون معجباً بنفسه ، مثنياً على شعره ولو كان مجيداً ، إلا أن يريد ترغيب ممدوح أو ترهيبه .

ولا أريد أن استطرد فى إيراد الأمثلة فهى عديدة تغص بها كتب الأدب وكلها يدل على حاجة الناشئين فى الأدب إلى مثل هذا التوجيه . حتى تصقل ملكاتهم ، ويتقنوا صناعتهم .

وإذا كان الشعر العربى القديم وما يحتويه من أخبار العرب وعاداتهم وتقاليدهم وأنسابهم وأحسابهم ومكارمهم ، من أول ماحرص عليه الموجهون فى العصور القديمة ، فإنى أرى الأمر بالنسبة لنا نحن المحدثين الذين تغزونا الثقافات الأجنبية من كل صوب وتكاد تسد علينا المنافذ ، أحوج ماتكون إلى الحرص عليه والعناية به ، ومداومة الدراسة له ، لنتشرب روح الأمة العربية ونقف على أمجادها ومفاخرها ، وعاداتها وأساطيرها وعقائدها ، وحضارتها وفنون أدبها ، وبذلك حين نجدد لا نقطع الصلة بماضينا ، ولا نتنكر لأمتنا ، بل نصل الماضى بالحاضر ونظهر روح أمتنا مصبوغة بحضارتنا وثقافتنا ومقومات عصرنا ، أما أن ندير ظهرنا لآثار السلف ، ونولى وجوهنا شطر الأدب الغربى فحسب : ونتنج أدباً ينبو عن ذوق الأمة ومشاعرها بحجة التجديد فإن ذلك مسخ وانسلاخ وسيكون أدباً غربى الروح ، غريب العاطفة ، تَفَلا ، ليس فيه من العربية إلا الألفاظ والحروف .

ومن أحسن ما قرأت فى هذا الباب ماقرره زميلنا الأستاذ محمد خلف الله[1] حيث يقول : « والواقع أن هناك عناصر أساسية فى الموضوع اذا اتفقنا عليها أمكنتنا أن نكون رأيا منصفا عملياً .

---

(١) راجع كتابه (من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب) : ص ١٠٣ | ١٥٤ ، ١

فالحقيقة الأولى أن الفن — من بين أنواع النشاط الإنسانى — لاينبع من العقل الواعى فحسب، ولكن من العقل الباطن، ولا يستمد من الوعى الفردى فحسب، ولكن من وعى الجماعة أيضاً؛ بل يحدثنا الفنانون المحدثون — ويؤيدهم فى هذا فريق من العلماء — أن وعى الجماعة هو المصدر الحقيق للإلهام الفنى العبقرى. وهذا الوعى تيار ينحدر من الماضى إلى الحاضر، بعد أن يزوده كل جيل بروافد جديدة.

ومنابع هذا التيار إنما هى التاريخ القديم للجماعة ومعتقداتها وخرافاتها وحروبها وبطولتها ومآسيها الكبرى، وأشخاصها الحقيقيين والخرافيين، وصورها الأدبية القديمة التى أخذت مكانها فى عالم الخلود، فلم تعد ملكاً لجيل دون جيل، بل أصبحت تراثاً مشاعاً وغذاء لخيال الأجيال طوال العصور. ومن هذه المنابع الأولى يستمد الشاعر كثيراً من وحى صوره وصياغته، ويستمد القاص والروائى مادة لقصصهما وروايتهما. وهذا الأدب القديم بصوره وموسيقاه يشترك فى تكييف أذواق الأجيال المقبلة، وفيما تستحسن أو تستقبح من فنون أدبية مستحدثة.

والحقيقة الثانية — وهى حقيقة يمكن درسها فى آداب الأمم كلها، ولكنها أظهر ما تكون فى آداب الأمم العربية — هى أن عوامل دينية وقومية تعاونت على أن تجعل للغة العربية وضعاً خاصاً بين لغات الأمم، وعلى أن تجعلها تتمتع بنوع من الخلود لم يتح للغة أخرى. وقد سايرت هذه اللغة عوامل التطور والتجديد فى حياة الأمم العربية، ثم أمكنها مع ذلك أن تحتفظ بروحها وجوهرها، وأن تصل صلة حقيقية بين شخصين أو عقلين أو مزاجين يفصل بينهما أربعة عشر قرناً تنوء بما حملت من تراث أدبى علمى؛ وكل هذا يجعلها غذاء لابد منه لنا شئنا الأدبى الحديث».

على أن ثقافة الأديب المعاصر لا تقف عند حد دراسته للأدب القديم ، وحفظ الجيد منه ؛ لأن الأدب قد تنوعت فنونه واتسعت آفاقه ، وتعددت أغراضه وقوالبه ، ولم يعد أدب الملوك والأمراء ورجال الحاشية ، أو أدباً فردياً يترجم عن أحاسيس الشاعر وعواطفه وآلامه وآماله ويأسه ورجائه فحسب ، ولكنه صار ينزع نزعات إنسانية عامة ، ويعنى بالشعب عناية فائقة ، ويفصح عن أحوال الأمة فى مجموعها ويعبر عن مختلف أحاسيسها ، كما يعنى بالطبيعة يستلهم سفرها الخالد أفانين الجمال والجلال .

كانت القصيدة العربية هى القالب الأثير لدى فحول الشعراء فى العصر القديم ثم استحدثت الموشحات والرباعيات والمخمسات ، ولكنها لم تعد اليوم هى القالب الوحيد الذى يبرز فيه الشعراء آراءهم وأغراضهم وأخيلتهم ، بل هناك الأقصوصة الشعرية والملحمة التاريخية والمسرحية بحوادثها وشخوصها ، يصوّر فيها المجتمع والتاريخ تصويراً فنياً رائعاً .

كما استحدثنا فى النثر — قوالب شتى من مقالة متنوعة الأغراض تخوض فى كل شئون الحياة — حياة الفرد وحياة الأمة — إلى قصة قصيرة أو طويلة تمثل البيئة وتبرز العادات والتقاليد وتشخص الأدواء الاجتماعية ، وتصف العلاج الناجع لها فى مهارة فنية ، ونفاذ بصيرة ، وإحاطة بكثير من العلوم . وأفسح المجال للخطابة والخطباء فى ميادين السياسة وساحات القضاء والمجالس النيابية وغيرها .

ولا شك أن التوجيه الأدبى يتوقف إلى حد كبير على ميول الأدب إلى واحد من هذه الألوان . ولكنّ ثمة ثقافة عامة لابد منها لكل أديب أياً كان ميله شاعراً كان أو قصاصاً أو خطيباً أو كاتب مقال ، بجانب ثقافته الخاصة فى اللون الأثير لديه . وأول هذه الثقافات كما رأيت الأدب القديم مضافاً إليه تاريخ الأمة

السياسى والاجتماعى وما تماوره من قوة وضعف ، ونشاط وركود حتى يتعرف على عاداتها وتقاليدها ومفاخرها وعيوبها ومثلها الروحية والاجتماعية ، وقد أشبعنا هذا الموضوع دراسة فى الصفحات المتقدمة .

وثانى هذه الثقافات التى ترهف ذوق الأديب ، وتشحذ حسه ، وتنير عقله ، وتزيده بصيرة ونفاذاً إلى حقائق الأشياء هو أن يتجه إلى دراسة الحياة على أسس علمية سليمة ، فالحياة تفيض بالينابيع الثرة التى تمده بموضوعات أدبه ، بما فيها من أهواء متنازعة ، وحب وبغض ، ومسرة وألم ، ونجاح وإخفاق ، وتضحية وأثرة ، وجمال وقبح ، وخير وشر ، وغنى وفقر ، وسعادة وشقاء ، وبما فيها من صراع لا تهدأ ثائرته فى كل ميدان من ميادينها . والأديب الذى يعيش فى برجه العاجى ، ويصم أذنيه ويغمض عينيه عما يجرى حوله فى خضم الحياة المتلاطم الأمواج حرىّ بأدبه أن يأتى خالياً من الروح والصدق والواقعية والتأثير والقوة .

كما يجب عليه أن يتجه نحو الطبيعة فهى السفر الخالد الذى ينص بآيات الجمال والجلال والقوة ، ولا يقف عند مظاهرها وتسجيل صورها ، بل يحاول أن يكشف عن سر جمالها ، وأن يصل إلى عالم الحقيقة عن طريقها ، ويمتزج بها ويشاركها بروحه وقلبه وعقله فى رضاها وغضبها وجمالها وتجهمها .

إن فى الحياة والطبيعة معيناً لا ينضب من الوحى والإلهام ، وإذا لم يستطع الأديب أن يفيد منهما فى أدبه بحاسته السادسة وبصيرته المتقدة ومشاعره المرهفة ، فلن يكون له فى الأدب الخالد نصيب .

وثالث هذه الثقافات التى لا غنى عنها للأديب المعاصر أن يدرس فى عمق العلوم الإنسانية التى تتصل بالأدب اتصالا وثيقاً وبينها وبينه وشائج قوية كعلم

النفس والاجتماع والتاريخ العام وعلم الجمال والفلسفة والنظريات السياسية ، بل إن من النقاد من نادى بدراسة العلوم البحتة كالفلك والطب والتشريح ، ومن الأدباء من أفاد من دراسته للعلم Science ومزج بينه وبين الأدب ، وصور الإنسانية فى حاضرها ومستقبلها تصويراً رائعاً مثل (ﺣ . ﻫ . ويلز) .

ولنتذكر دائماً أن الأدب ليس ثمرة الإلهام وحده ، ولكنه ثمرة الإلهام والصنعة معاً ، ومن أهم وسائل الصنعة وبلوغها كمالها ثقافة الأديب ومجاراته لثقافة عصره وتمثيله لحضارة جيله ، ولا يتأتى ذلك إلا بمواصلة الدرس سواء كان شاعراً أم ناثراً ، وإفادته من ثقافة غيره من الأدباء والمفكرين ، فإن ذلك يعينه على الوصول إلى الحقيقة وعلى أسرار الحياة وتياراتها المتضاربة ، ويقفه على تراث الإنسانية ، فيأتى أدبه غنياً عميقاً جذاباً مؤثراً ، لا ثرثرة فارغة وهراء لا طائل تحته ولا نفع فيه . وكثيراً مارمى النقاد المحدثون بعض شعرائنا بالكسل العقلى ، والاكتفاء بلون محدود من الثقافة أو اعتمادهم على الموهبة وحدها .

ورابع هذه الثقافات أن يدرس أدب معاصريه ، ويتعرف على محاسنهم وعيوبهم ، وأين برزوا وكيف قصروا حتى يضيف إلى إبداعهم حلقة جديدة تدفع بأدب أمته إلى الأمام ، وتعمل على تطوره ونضجه . وللأدب المعاصر تأثير عظيم فى الأدباء الناشئين لأنه نموذج حى تعالج مشكلات الحياة المعاصرة وتعبر عنها . وقد كان أثر البارودى فيمن أتى بعده من الشعراء[1] لا يقل عن أثر الشعر العربى القديم .

---

(١) راجع رأى الرافعى فى تأثير البارودى على حافظ فى المقتطف أكتوبر ١٩٣٢ ، وعلى شوقى فى المقتطف نوفبر ١٩٣٢ . والمقال الأول نشر فى وحى القلم الجزء الثالث ص ٣١٦ ، والمقال الثانى فى الجزء نفسه راجع ص ٣٥١ — ٣٥٢ .

وأن يدرس بجانب الأدب المعاصر خصائص أمته ومقومات شخصيتها ويتعرف على حقيقة روحها وسر حياتها ممثلة فى أغانيها وقصصها وخرافاتها وتاريخها وصورها وصحافتها وعاداتها الريفية والحضرية لا فى مصر فحسب بل فى الأقطار العربية الأخرى . وبذلك يستطيع — مادامت لديه الموهبة الخلاقة والأداة المعبرة — أن يمثل حضارة جيـــله ، ويعبر عن مشاعر أمته ، ويبرز روحها الصادقة فى أدبه نثراً كان أم شعراً .

وخامس هذه الثقافات التى صارت ضرورية اليوم لكل أديب معاصر أن يأخذ بنصيب غير قليل من الثقافة الأوربية . وأن يطلع على الأدب الغربى فى ينابيعه الأصلية ما استطاع ، فإن فى هذا الأدب ثروة عالية ، وفناً رفيعاً ، وليس من الخير لأدبنا أن يقطع صلته بالآثار الأدبية الخالدة التى اعترف بها العالم أجمع فإن ذلك أفناً وضلالا ، ولكن تقليد المذاهب الأدبية الأوربية التى دعت إليها ظروف خاصة فى بيئاتها الأصلية اقتصادية وسياسية واجتماعية ، من غير أن يكون ثمة ما يدعو إلى تقليدها ومحاكاتها فى أدبنا بدعوى التجديد ينم عن ضعف الشخصية ، والانسلاخ عن تيار الأدب العربى والانحراف عن ذوق الأمة . وإنما نأخذ من هذه الآداب مزاياها الثابتة ، واتجاهاتها الإنسانية ، وخصائصها المفيدة من غير أن نتنكر لذوق الأمة ونقطع ما بيننا وبين ماضينا .

ولقد خطا بعض أدبائنا فى هذا السبيل شوطاً محموداً ، وجددوا باتصالهم بالأدب الغربى تجديداً معقولا ، وأخذوا من الأدب الغربى خير ما فيه ، ومن الأدب العربى القديم خير ما فيه ، وبذلك أضافوا بأدبهم حلقات جـديدة إلى سلسلة الأدب العربى ، وعملوا على إغنائه وتطوره ، وصار أدبهم خالداً لما فيه من عناصر أصيلة فى كل أدب خالد .

تلك خطوط موجزة فى تكوين ذوق الأديب العربى الناشىء وتوجيهه أشعر أنها فى حاجة ماسة إلى البسط والإيضاح .

وكما أن (أرنولد بنيت) عمل على أن يضم مكتبة للأديب الناشىء فى انجلترا يتدرج معه فيها تدرجاً طبيعياً إلى أن تكمل ثقافته ، وتستقل شخصيته ، فأديبنا العربى فى أمس الحاجة إلى مثل هذه المكتبة .

ولقد وعد صديق (الدكتور على الجندى) الذى ترجم هذا الكتاب ترجمة قوية ، واجتهد فى أن يجعله مفيداً للقارىء العربى ، أن يكتب بحثاً خاصاً فى تكوين الذوق الأدبى العربى ، وأن يضم مشروع مكتبة تسهم فى إنماء ذوق القارىء والأديب ، وإننا نتطلع فى لهفة إلى اليوم الذى ينجز فيه هذا المشروع ويقدم فيه هذا البحث ، وفقه الله ونفع به .

المعادى فى ٢٩/١٠/١٩٥٧ عمر الدسوقى

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

تقديم

يسرنى أيها القارىء العربى أن أقدم إليك كتابا سهلا لطيفا ، وهو مع ذلك ممتع ومفيد . ذلك هو كتاب « الذوق الأدبى » للأديب الانجليزى المشهور أرنولد بنيت .

أما إنه كتاب سهل ، فلأنه ليس فيه غموض ولا تعقيد ، لا فى الفكرة ، ولا فى التعبير ؛ بل فى منتهى الصراحة والوضوح .

وأما إنه كتاب لطيف ؛ فذلك راجع إلى أن الروح التى كتب بها المؤلف هذا الكتاب روح خفيفة ، يتجلى فيها الإخلاص الحقيق ، والرغبة الأكيدة فى تحقيق الغرض الذى ألف من أجله هذا الكتاب ؛ مع البعد عن إثارة المسائل التى تجعل بعض المؤلفات ثقيلة على بعض النفوس ، بما تتعرض له من أمور غامضة ، أو عويصة تستعصى على الفهم ، أو تتطلب مجهودا عقليا فوق طاقة الشخص العادى .

وهو كتاب ممتع حقا ؛ لأنه يستهوى قارئه ويجذبه إليه ؛ فهو كلما قرأ منه شيئا شعر باللذة حقا ، وأحس أنه مأخوذ بالكتاب ، وأن لديه دافعا يشجعه على متابعة القراءة ، رغبة فى المزيد من اللذة والمتعة .

والكتاب ، فوق كل هذا ، مفيد ؛ لأنه يعالج مشكلات حقيقية ، يحسها القارىء فى نفسه ، وربما يكون قد شكا منها كثيرا ، ويحاول المؤلف أن يحلها ، وأن يجد لها حلا موفقا ، يريح القارىء ، ويهدىء نفسه ، عله يسير فى طريقه بعد ذلك على هدى وبصيرة .

ومؤلف هذا الكتاب هو أرنولد بنيت الأديب المشهور ، كاتب القصة و « الدراما » فى الأدب الانجليزى .

وقد ولد أرنولد بنيت يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٦٧ فى هانلى بمقاطعة ستار فورد بانجلترا . وبعد أن أتم دراسته اشتغل فى مكتب محاماة . وفى هذه الفترة ظهرت مواهبه الأدبية ؛ فنشر كثيرا من القصص والمقالات . ثم ازداد ولعه بالأدب ، واستولى حبه على قلبه ، وملك مشاعره ، فقرر فى سنة ١٨٩٣ عندما بلغ السادسة والعشرين أن يكرس حياته للادب ، وأقام فى لندن . فاشتهر ، وذاع صيته ، وعرفت مواهبه الأدبية الممتازة ، فعيّن مديرا مساعداً لتحرير مجلة « المرأة » . ثم رقى مديراً لتحرير هذه المجلة سنة ١٨٩٦ .

ولقد شغله هذا العمل نوعا ما عن تأليف الروايات والكتب الأدبية . فلم تنشر له كتب قبل بلوغه الثلاثين . وفى سنة ١٨٩٨ ظهرت له رواية « رجل من الشمال » .

ويبدو أن الميل الأدبى كان يغلب عليه ، وأن الروح الأدبية قد سيطرت عليه تماما فى ذلك الوقت ، فأحس أن لديه رغبة قوية فى الإنتاج الأدبى ، وأنه لن يتسنى له ذلك على الوجه الأكمل إلا إذا تفرغ له تفرغا تاما ، فاستقال من رئاسة التحرير سنة ١٩٠٠ ، وعكف على إنتاج المؤلفات الأدبية .

ومنذ ذلك الحين أصبح أرنولد بنيت كاتبا لا يشق غبار فى الأدب المتنوع على العموم ، وفى الخيال بوجه خاص . وأخذت الكتب الأدبية التى تحمل اسمه تظهر تباعا ، منها : « فندق بابليون العظيم » سنة ١٩٠٢ ، و « الحقيقة عن المؤلف » سنة ١٩٠٣ ، و « قصة الزوجات العجائز » سنة ١٩٠٨ ؛ وقد حازت هذه القصة إعجاب الناس جميعا ، وكانت موضع الثناء والتقدير ، وبلغ أرنولد بنيت بسببها أوج المجد ، حتى إن كثير من الناس كانوا يعدونه مجرد كاتب عادى ، إلى أن نشر هذه القصة الرائعة ، فاعترف له الجميع بالمهارة والتفوق ، وطبقت شهرته الآفاق .

وقد استطاع بنيت أن يثبت أنه جدير بالثناء الذى كسبه ، وذلك بكتابته كثيرا من الكتب الأدبية الممتازة ، والقصص ، والروايات المختلفة ، مثل : كتاب « الذوق الأدبى » الذى نقدمه إلى القراء ، وقد ظهر أول طبعة له سنة ١٩٠٩ ، و « Clayhanger » سنة ١٩١٠ ، و The Card سنة ١٩١١ ، و Hilda Lissways سنة ١٩١١ ، و The Matador of the Fife Towns سنة ١٩١٢ . وفى سنة ١٩١٣ ظهرت له قصة حازت نجاحا عظيما ، هى « المغامرة العظيمة » . وفى السنوات التى تلت ذلك استمر بنيت يكتب روايات ، وقصصا ، ونقدا أدبيا . وفى أثناء الحرب مع ألمانيا كان يكتب مقالات سياسية فى غاية القوة والروعة .

وفى قصة « السيدة الحسناء » The Pretty Lady التى ظهرت فى سنة ١٩١٨ كتب أرنولد بنيت عن نوادر لندن بدهاء كأنه إلهام . كما أنه فى قصة Riceyman Steps التى نشرت سنة ١٩٢٣ أضاف إلى مؤلفاته القيمة دراسة رائعة للبؤس . وقد استطاع بنيت أن يبين ما لدى الناقد الفذ من نظرة فاحصة

لحقائق الأشياء التى تحويها الحياة اليومية . وتلك النظرة هى التى جعلت بنيت مترجما من حياة الناس فى عصره ، وهى التى استطاع بها أن يجعل غير المهم مهما. وأن يحيل الممل ممتعا ، وأن يصيّر الزهيد جليلا ، والقبيح جميلا .

وليس هناك شك فى أن بنيت قد هيأ للقــارىء متعة عظيمة ، بإبداعه فى الخيال حتى جعله من التصورات الحقيقية ، فزج الحقيقة بالخيال ، وخلط المرح بالفكاهة ، وخلق من الحياة العادية حياة حلوة جميلة . وكانت لديه مقدرة تمكنه من إدراك حقيقة ما حوله من العالم الذى يبدو لمعظم الناس غريبا كعالم الجن والعفاريت ، فكان بنيت فى قصصه الأدبية مصورا بارعا ، استطاع أن يجعل من أشخاص قصصه الخيالية حقائق واقعة كالناس الذين كانوا يعيشون فى وقته .

وإنا لنجد فى فلسفته نفس المتعة التى نجدها فى قصصه ورواياته . وكان لديه شغف عظيم بكل شىء حديث . وأثبت بنيت أنه كان لديه مقدرة فائقة على هضم الكتب ، وفهم الموسيقى والرسم . ومن المستحيل على العموم ، أن ينكر إنسان أن بنيت كان فنانا ، كما كان كاتبا عبقريا . ويعترف النقاد والبــاحثون بأنهم لا يستطيعون ان يجزموا بأن بنيت كان يستغل مواهبه استغلالا تاما ؛ فيقررون أنه مع أن إنتاجه كان عظيما ، فإنه يبدو أن مواهبه كانت أعظم . ومات بنيت فى ٢٧ مارس سنة ١٩٣١ .

من هذا العرض السريع لحياة المؤلف ، وإنتاجه الأدبى ، نجد أنه أديب بطبعه ، وعاشق للأدب . خلق وفى دمه حب الأدب ، ونشأ وقد تغذى بالأدب ، وشب وترعرع على الأدب ، حتى أصبح كأنه هو نفسه جزء من الأدب .

لذلك نتوقع من أرنولد بنيت أن يتحدث فى كتابه هذا عن مشكلات أدبية هامة تعترض الإنسان حينما يقرأ الكتب لتغذية ذوقه الأدبى وتنميته ، ونتوقع منه كذلك أن يتحدث عنها ، لا حديث العالم المتخصص فقط ، بل حديث الخبير الواعى الذى يتحدث عن نفسه هو ، وينبع حديثه من عقله هو ، وروحه هو ، حديث المجرب الذى يتحدث عن حسه ، وعواطف نفسه ، وعن المشاعر والانفعالات التى يحسها الأديب حينما يتغذى ويهضم ويتمثل ، وحينما ينتج ويثمر ، وحينما يرى أثر إنتاجه وقيمة ثماره فى العالم المحيط به . والحق يقال إن ذلك كله هو مايتسم به حديث أرنولد بنيت فى كتاب « الذوق الأدبى » الذى نقدمه لقراء اللغة العربية الآن .

كانت أول طبعة ظهرت لهذا الكتاب سنة ١٩٠٩ بعد عام واحد من ظهور « قصة الزوجات العجائز » التى أسرت قلوب الناس ، وجعلت المؤلف ذا صيت ذائع ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وغرض المؤلف من هذا الكتاب تكوين الذوق الأدبى لدى القارىء ، وإرشاده إلى أحسن الوسائل لتكوين ذوقه الأدبى .

وكان همه موجها إلى الذوق الأدبى العام ، لا الذوق الأدبى الخاص . لذلك كان يوجه حديثه فى الكتاب إلى القارىء على العموم . لكنه لم يكن ، بطبيعة الحال ، ليقصد أى قارىء كان ، بحيث يشمل ذلك الشخص الذى يستطيع أن يقرأ الحروف ، ويعرف رسم الكلمات ؛ بل كان يعنى ذلك القارىء الذى لديه ميل واستعداد لفهم الأدب وتذوقه ، والذى يحس أنه فى حاجة إلى هداية وإرشاد لمعرفة الوسيلة الفعالة لتنمية هذا الاستعداد وتربيته وتقويته ، خشية أن يموت ، أو يقضى عليه فى مهده .

من أجل هذا عرض المؤلف فى هذا الكتاب لأمور كثيرة تتصل بحال مثل هذا القارىء ، وسار معه خطوة خطوة ؛ باحثا ، ومحللا ، ومرشدا هاديا ، حتى انتهى به إلى باب كنز عظيم ، وسلمه المفتاح ، ثم تركه يتصرف فيه على هدى توجيهاته وإرشاداته ، مبينا له كيف يستغل هذا الكنز ، وكيف يقوم بفحص دقيق لمعرفة مدى الثروة التى يحصل عليها من استغلاله لهذا الكنز .

وقد شرح المؤلف غرضه من تأليف هذا الكتاب فى مواضع كثيرة ، مبينا أهمية الذوق الأدبى ، وعظم المسئولية الملقاة على عاتقه من جراء تعهده بالقيام بمهمة تكوين الذوق الأدبى ، وأنها مهمة ليست بالسهلة أو اليسيرة .

ويبدأ المؤلف كتابه بتبيان رائع لمعنى الأدب وقيمته ؛ فيشرح أهمية الأدب للفرد والمجتمع ، ويبين بالأدلة القاطعة أن الأدب من مستلزمات الشخص الذى يريد أن يحترم نفسه ، وأن يظهر فى المجتمع بمظهر لائق ؛ ثم يوضح أهمية الأدب للحياة ، وأنه هو الحياة نفسها ، وأن فهم الأدب معناه فهم الحياة ، وأن معرفة قيمة الأدب هى معرفة قيمة الحياة ، وبدون الأدب لا يستطيع الإنسان العاقل أن يحيا حياة سعيدة طيبة ، لأن الأدب هو الذى يبين معنى الحياة على حقيقتها ، وإذا فهمت الحياة فهما صحيحا استطاع الإنسان أن يستغلها على أحسن وجه ، وأن يعرف كيف يقضيها فى متعة وسعادة . ثم يقرر أن الذين لا يفهمون الأدب ليسوا أحياء ، بل هم أموات لا أثر للحياة فيهم ، لأنهم فقدوا الوسيلة التى تبعث الحيوية فى النفس ، والأداة التى تثير الدفء والحرارة فى الإنسان ، فتحفظ عليه الحياة ، وتجعله يشعر بها ، ويحس كل ما حساسا حقيقيا تاما .

وكأنى بالمؤلف بعد أن بين قيمة الأدب وأهميته ، ففتح عين القارىء على

منبع الحياة والمتعة ، بعد أن كان غافلا عنه ، تخيل القارىء مشدوها ، يمد يده نحو بنيت طالبا منه العون والمساعدة للوصول إلى هذا المنبع والإفادة منه ، مع بعث الأمل والطمأنينة فى النفس ، وتبديد المخاوف النفسية ، والتردد ، والاضطرابات المتضاربة التى تصطرع فى داخلية المرء حينما يقدم على مشروع له خطره وأهميته . فإذا بالمؤلف يأخذ بيد صاحبه القارىء ، وكأنه يسير معه جنبا إلى جنب فى رحلة تقوم على الصدق والأمانة والإخلاص ، أو يجلس معه جلسة المحب الوفى ، ثم يشرع معه فى حديث ودى ، يبحث فيه حالة القارىء المعنوية ، فيحلل نفسيته ، ويبيّن شعوره نحو القطع الأدبية الممتازة ، وهى التى يسميها المؤلف « بالكلاسيكيات » . ويذكر أثر التعليم فى المدارس فى خلق هذا الشعور لدى القراء مذ كانوا صغارا فى المدارس ، وحينما كانوا يقرءونها ولا يجدون فيها لا متعة ولا سحرا بالقدر الذى كانوا يتوقعون . ثم يتتبع أثر ذلك فى متابعة هؤلاء التلاميذ للقراءة بعد أن يكبروا ويتركوا المدرسة ، ويقارن بين شعورهم نحوها وشعورهم نحو عدد جديد من مجلة حديثة . وبعد أن يحلل المؤلف كل هذا يصف للقارىء علاجا ناجعا إن اتبعه ونفذه بدقة كما ينفذ المريض نصائح الطبيب وإرشاداته ؛ وهو علاج أساسه الناحية النفسية ، وفيه كثير من الأمور المادية التى يجب أن يستعملها القارىء حتى يقضى على الحالة التى يحسها ، ويصبح إنسانا مستعدا لحمل العبء حتى يصل إلى تحقيق أمنيته .

ولكى يبين المؤلف أهمية الكلاسيكيات عقد لها فصلا خاصا ؛ شرح فيه الأسباب التى من أجلها يسمى الكلاسيكى كلاسيكيا ، وأهم المميزات التى توجد فى الكتاب ليكون كلاسيكيا ؛ فعرض المؤلف الكلاسيكى ، وبيّن كيف يبدأ ، وكيف يصبح كلاسيكيا ، ومن هم أولئك الذين يجعلون الكتاب كلاسيكيا . ثم استخلص من كل هذا معنى الكلاسيكى ، وعند هذه النقطة يتعرض المؤلف

لقيمة الأدب ، وأهميته بالنسبة للقوم المشغوفين به ، ويتحدث عن تعلقهم الشديد به وفهمهم الحقيق ، وتقديرهم العظيم للأدب .

وبعد أن مهد الطريق أمام القارىء بتحليل حالته النفسية ، وبيان خصائص الإنتاج الكلاسيكى بدأ يتحدث عن النوع الذى ينبغى أن يقرأه من يريد تكوين ذوقه الأدبى ، وهنا يتصدى المؤلف لتحليل ما يسمى بالأنواع الأدبية ، والمضمون العام للأدب ، وأهم خصائصه ، كى يرشد القارىء إلى ماينبغى أن يبدأ به . ثم بين خصائص الإنتاج الكلاسيكى وخصائص الانتاج الحديث ، وتحدث عن كليهما ، مبيناً أيهما أكثر فائدة للقارىء المبتدىء ، موضحاً السبب الذى من أجله يفضل وجهة نظره التى ينصح بها القارىء ، ويبين الصلة بين كل هذا وذوق القارىء الأدبى الذى هو بصدد العمل على تكوينه ، ثم يرشد القارىء إلى ماينبغى أن يسلكه عند البدء فى أولى مراحل تكوين ذوقه الأدبى .

وما دام القارىء يبغى أن يكوّن لنفسه ذوقا أدبياً ممتازاً كان من الطبيعى أن يرشده المؤلف إلى الكتب الأدبية الممتازة ، والطريقة التى ينبغى أن يتبعها فى قراءته . ومن ثم شرع المؤلف فى إرشاد القارىء إلى القراءة المثالية لهذه الكتب ، فبين له ما يجب عمله قبل البدء فى القراءة ، وما يجب اتباعه فى أثناء القراءة ، ثم مايجب عليه بعد الانتهاء من قراءة مؤلف كلاسيكى ممتاز .

وقد تعرض فى هذه النقطة الأخيرة لأمور كثيرة تتصل بالأديب المؤلف نفسه ومعرفة مالديه من تأثر وانفعال ، وقدرته على التصوير ، وصدقه وتحريه الحقيقة فى تصويره ، ثم مدى تأثير هذا التصوير فى نفس القارىء والسامع ، واهمية كل هذا فى الأدب الصحيح . فشرح مايجب أن يتوافر فى الكاتب لكى يصبح ما ينتجه إنتاجا كلاسيكيا ، ثم بين الأثر الذى يحدث لانتاج الأديب إذا لم تتوافر

فيه كل هذه المميزات التى تحدث عنها المؤلف ، أو نقص واحدة منها .

ولما كانت الصلة بين المؤلف والقارىء هى الكلمات التى يستخدمها الكاتب وجدنا المؤلف بعد أن تحدث عن البحث فى مدي تأثير الكاتب فى القارىء ، شرع يتحدث عن الأسلوب والطريقة التى يستخدمها الكاتب لأداء مهمته ،

وهنا يثير المؤلف مشكلة أدبية فى غاية الأهمية ، هى الصلة بين الوضوع والاسلوب . فيتحدث بتفصيل عن رأيه فى هذه المسألة ، ولكى يزيد رأيه قوة ورسوخا يأخذ فى عقد مقارنات ، وذكر أمثلة من الحياة العادية التى تجرى كل يوم . ثم يتحدث عن الاشياء التى قد يهتم بها القارىء فى الكلمات حينما يقرأ أى كتاب ، ويبين مايصح أن يهتم به القارىء العاقل من هذه الأشياء ، وبعد هذا يتحدث عن القوانين التى ينبغى أن يستخدمها الإنسان فى الحكم على الأسلوب ، ثم يعقد صلة بين أسلوب الكاتب فى كتابته وأسلوب الإنسان فى حياته ، وينتهى برأيه فى الصلة بين الرجل والأسلوب ، ثم يتبع ذلك بنصيحة فى كيفية معرفة نوع الأسلوب ، وكيفية إدراك أهمية الادب وقيمته . والمقياس الذى يجب على الإنسان أن يستخدمه فى ذلك حتى لا يقع فى خطأ أو خطر .

وبعد ذلك شرع المؤلف يتحدث عن الكاتب الذى ينبغى أن يبدأ القارىء بقراءة إنتاجه . وهنا يتكلم عن الصفات الواجب توافرها فى مثل هذا الكاتب وبهذه المناسبة يتحدث المؤلف عما يجب أن يتوافر فى القارىء المهتم بالأدب حتى لا يضيع وقته سدى ، ثم يتحدث عن الشعور الذى يعترى الإنسان عند قراءة إنتاج كلاسيكى ، وينصح بالعلاج اللازم ، ويبين مايجب على القارىء أن يأخذ نفسه به حينما يبدأ فى قراءة إنتاج أديب كلاسيكى ممتاز ، وما يجب أن يتبعه فى أثناء قراءة هذا الإنتاج .

ولأن مؤلف هذا الكتاب أديب بطبعه ، يعرف معرفة شخصية حقيقية ما يجول بنفس كل من الأديب المنتج ، والأديب القارىء لهذا الإنتاج ، نجد المؤلف يتحدث عن السرور الذى يحصل عليه القارىء من قراءة إنتاج كلاسيكى فيشرح نوع هذا السرور ، وطبيعته ، ويقارن بينه وبين أنواع السرور الأخرى ليبين الفرق بينه وبين هذه الأنواع . ثم يرجع ذلك كله إلى الخصائص التى تمتاز بها الكلاسيكيات .

ثم يعرض المؤلف بعد ذلك لأهم أنواع الكلاسيكيات التى ينبغى أن تقرأ فى بادىء الأمر . ويشرح للقارىء النظام الذى يجب أن يتبعه فى قراءة هذه الكلاسيكيات ولا ينسى أن ينبهه إلى كثير من التحذيرات التى لو لم يتبعها وقع فى خطأ شنيع . ثم يتحدث بهذه المناسبة عن الأنواع الادبية فى نظره ، وما ينبغى أن يفعله القارىء حيال كل نوع منها حتى يحافظ على التوازن بينها فى تكوين ذوقه الأدبى .

وكأنى بالمؤلف أحس أن الشعر أرق أنواع الأدب ، حتى إنه ليرى أن مفتاح الأدب هو فهم طبيعة الشعر ، فخصه بالحديث عنه فى فصل قائم بذاته .

وهنا يتحدث عن شعور النـاس عامة ، والمتعلمين خاصة ، نحو الشعر ويحلل السبب فى وجود هذا الشعور . ثم يصف طبيعة هذا الشعور ، ويبين الصلة بينه وبين الشعر . ثم يخلص إلى الكلام عن معنى الشعر ، وطبيعته ، وكيف يوجد ؟ وفيم يوجـد ، والفرق بينه وبين النثر . ويقارن بين أرق مقطوعة فى الشعر ، وأرق قطعة فى النثر ، ثم يتحدث عن الشعر الراقى ، والشخص الذى فى مقدوره أن يفهم هـــذا النوع من الشعر ، والصفات الواجب توافرها فى الأشخاص الذين يريدون أن يتذوقوا الشعر . ثم يستنتج سبب الشعور الشائع بين الناس نحو الشعر على وجه العموم

وبعد ذلك يضع للقارىء خططا وارشادات ينصحه باتباعها عند ما يشرع فى قراءة الشعر ، وفى أثناء قراءته له . وهو فى حديثه عن كل هـذا يثير أموراً تعرض للقارىء فى مثل هذه الحال ، ثم يحاول أن يحلها ، ويصف علاجا لها إن كانت مما يحتاج إلى علاج .

وبعد أن يبصر القارىء بالطريقة المثلى فى قراءة الشعر لـكى يحصل على أكبرفائدة متوقعة من قراءة هذا النوع الأدبى الممتاز ، ينصح القارىء بما ينبغى أن يفمله خاصا بالتفصيل ، والأسس التى يقوم عليها تـكوين النظم والقافية ، مبيناً قيمة هذه الأشياء ومعرفتها بالنسبة إلى الشعر نفسه ، وإدراك كنهه ؛ ومعرفة طبيعته وخصائصه .

ثم عقد المؤلف فصلا خصصه لإرشادات وتوجيهات عامة أخيرة اعتمد فيها على الناحية النفسية للقارىء ، وعلى ناحيـة مادية ، هى فى الحقيقة أساس مهم جدا فى تـكوين الذوق الأدبى . تلك هى امتلاك مكتبة أدبية كاملة فى كل فروع الادب القوى ، حتى يستحق القـارىء أن يسمى بحق « رجل الـكتاب » أو « عاشق الـكتاب » . ولهـذا انتقل إلى الحديث عن تـكوين مثل هذه المـكتبة .

وحديثه عن المـكتبة الادبية فى غاية الأهمية ، لأنها عنده تـكاد تـكون الأساس القوى الذى يقوم عليه مشروعه فى تكوين الذوق الأدبى . ولذلك أولاها عناية فائقة . ويدل هذا المشروع على أن المؤلف بذل مجهوداً كبيراً فى نواح شتى حتى أخرج هذا المشروع . وقد خصص له المؤلف فى هذا الـكتاب أربعة فصول كاملة ، من الفصل الحادى عشر إلى الفصل الرابع عشر . وفى تـكوين المـكتبة قسم الأدب الانجليزى أربعة أقسام ، كل قسم منها يخص إنتاج

فترة معينة من القرن السابع عشر إلى العصر الحاضر . ومن ثم فقد عقد لكل فترة فصلا خاصا .

وقد بين فى هذا المشروع الأسس التى بنى عليها اختياره للكتب ، والمؤلفين والمواد التى اختار منها هذه المؤلفات ، وهى المواد التى يجب فى نظره أن تشتمل عليها المكتبة الأدبية الكاملة . وقد سن لنفسه فى ذلك قواعد اتبعها ، وأخرج بسببها كثيراً من المؤلفات الأدبية ، لا لسبب إلا لأنها لا تتمشى مع هذه القواعد .

والمؤلف فى كل فصل من هذه الفصول الأربعة يذكر قائمة بالكتب التى ينصح باختيارها للقارىء من هذه الفترة ، ويضع أمام كل كتاب ثمنه فى ذلك الوقت . ثم بعد ذلك يذكر فى نهاية كل فصل ملخصاً إجمالياً لثمن الكتب فى كل فترة من هذه الفترات . وفى نهاية الفترات الأربع ذكر ملخصاً عاما جمع فيه أثمان هذه القوائم الأربع جملة واحدة .

وقد استطاع المؤلف حقاً أن يختار مجموعة ممتازة من الكتب فى شتى المواد لتكوين مكتبة أدبية كاملة لأديب يريد حقيقة أن يكوّن له ذوقا أدبيا ، وأن يسمى بحق « رجل الكتاب » . واستطاع المؤلف أن يفعل هذا بمبلغ من المال يعد صغيراً بالنسبة لقيمة هذه المكتبة وفائدتها .

وقد رأيت فى ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية أن أحذف هذه القوائم من الترجمة ، مكتفياً بتلخيص الأسس التى اتبعها المؤلف فى مشروعه . ولم أترجم هذه القوائم الانجليزية لأنها ، بطبيعة الحال ، ليست ذات جدوى للقارىء العربى فهى كتب انجليزية لا تهم سوى القارىء الانجليزى .

وإنى لأرجو الله أن يوفقنى فى القريب العاجل إن شاء الله إلى إخراج مشروع لتكوين مكتبة أدبية عربية ، على غرار ما اتبعه بنيت فى مكتبته الانجليزية

وتتناسب مع ميول القارىء العربى ، وطبيعة إنتاج العرب الأدبى ، ويرجع السبب فى عدم ظهور هذا المشروع مع هذه الترجمة الآن إلى أن البحث عن أثمان الكتب ، والاتفاق مع الناشرين على عرض الكتب لهواة هذا المشروع بثمن مناسب ، يتطلبان وقتاً طويلا ، خاصة وأن أثمان الكتب قد ارتفعت بكثير عن ذى قبل ، بحيث أصبح من غير الممكن تكوين مكتبة أدبية كاملة بالقيمة التى ذكرها المؤلف حينما ألف هذا الكتاب . وليس ذلك بغريب ؛ فالحالة الاقتصادية لا تثبت على حال ، وقلما تنخفض الأسعار ، بل هى دائماً فى ارتفاع خصوصاً فى أيامنا هذه . حتى إن فرانك سوِنرتن حينما نشر هذا الكتاب سنة ١٩٣٧ ، أى بعد ثمانية وعشرين عاما من ظهور أول طبعة له ، لاحظ أن أثمان الكتب التى ذكرها أرنولد بنيت قد ارتفعت كثيراً عما كانت عليه حينما ظهر هذا الكتاب أول مرة فما بالك الآن ، بعد انقضاء خمسين عاما ونحن نرى الأسعار فى أيامنا هذه قد ارتفعت ارتفاعاً لم نر له مثيلا من قبل .

وفى آخر فصل من فصول الكتاب تحدث المؤلف عن آخر مرحلة من مراحل مهمته ، وهى الثمرة التى ينبغى أن يحصل عليها القارىء بعد مجهوده الطويل وقد سمى المؤلف هذا الفصل « الجرد العقلى » ويقصد به أن يقوم القارىء بحصر دقيق لما استفاده من قراءة كل كتاب فى هذه المكتبة التى أصبحت ملكا له .

ويدخل المؤلف على موضوعه هذا بالإشارة إلى أهمية الأدب . وقيمة الحياة بدونه ، وكيف تصبح حياة الناس لولا هذا الإنتاج الإنسانى الرفيع . ولهذا ، يجب فى نظره أن يعرف القارىء مدى الفائدة التى يحصل عليها من قراءة الكتب الأدبية .

وفى هذا الفصل يبين المؤلف للقارىء كيف ينبغى أن يشعر بمتعة الأدب عند ما يقرأ كتاباً أدبياً ، ويعطيه أمثلة أدبية ممتازة تحرك العاطفة ، وتلهب الوجدان ،

يشرح ما ينبغى أن يجده القارىء فى الأدب من صلة بين الأدب وحياة القارىء نفسه والحيـــاة العادية التى تجرى كل يوم ، والحوادث التى تقع بين أيدينا ، والظواهر المختلفة التى أمام أعيننا ، سواء من كل هذا ما كان صغيراً أم كبيراً تافها أم عظيما ، زهيداً أم جليلا .

ثم شرح للقارىء كيفية إجراء اختبارات مختلفة لمعرفة مدى ما حصله وعقله ، واختزنه من قراءة كل كتاب .

ولا ينسى المؤلف أن يبين السبب فيما إذا وجد القارىء أن الفائدة التى حصل عليها كانت قليلة أو معدومة . ثم يرشده إلى العلاج فى مثل هذه الحالة ، ويبين ما ينبغى أن يكون عليه من حالة نفسية وقت القراءة ، والطريقة التى يجب عليه أن يقرأ بها ، والأسس التى ينبغى أن يسير عليهـا فى قراءته ، وكيفيـة ترتيب المعلومات التى تصل إليه من قراءاته الكثيرة . كل ذلك ليستطيع القارىء أن يجنى كل فائدة ممكنة من وراء هذا الكنز العظيم الذى أصبح تحت يده يتصرف فيه كيف يشاء .

• • •

من ذلك نرى أن المسائل التى أثارها المؤلف فى كتابه مسائل فى غاية الأهمية ولا شك أن الطريقة التى اتبعها المؤلف فى التحليل ، والبحث عن الأسباب ، وبذل الجهد فى النصح والإرشاد ، وأسلوبه فى الحديث والعرض ، ذلك الأسلوب السهل الممتع الذى سار فيه على طريقة المحادثة للقارىء ، كأنه يسير معه فى رحلة أو كأنهما يتجاذبان أطراف الحديث فى أمور هامة . حتى إنه كثيراً ما كان يسأل القارىء ، أو يتخيله سائلا ثم يجيب : لا شك أن كل هذا مما يستهوى

القارىء ، ويملك عليه مشاعره ، خاصة وأنه يساعده على فهم نفسه ، وإنارة السبيل أمامه ، وهدايته إلى أحسن الوسائل لتكوين شخصية ممتازة .

ولا شك كذلك في أن هذا الكتاب يدل على أن كاتبه أديب يكتب عن طبع أصيل ، وينبع حديثه من إحساس صادق ، وخبرة حقيقية بالنفوس ، خاصة نفسية القارىء المشغوف بالأدب ، والذى يحب أن ينمى ذوقه الأدبى .

وقد رأيت بعد قراءتى النص الانجليزى أهمية هذا الكتاب ، وشجعنى على ترجمته إلى اللغة العربية ما ألمسه فى قرائنا من الحاجة إلى الإلمام بما فى هذا الكتاب عامة ، واتباع ما ينصح به من إرشاد وتوجيه ، كى تكون قراءتهم نافعة مفيدة .

وإنى لأرجو الله مخلصاً أن يحقق هذا الكتاب الأمل الذى أنشده لقراء لغتنا العزيزة .

القاهرة فى أول يناير سنة ١٩٥٧

على الجندى

الفصل الأول

الهـــدف

هناك خطأ شائع يجب فى بداية الأمر أن يزال من الطريق . فكثير من الناس ، إن لم يكن معظمهم ، ينظرون إلى الذوق الأدبى كأنه شيء كمالى بديع ، إذا حصلوا عليه تكمل نفوسهم ويصبحون فى النهاية صالحين لأن يكونوا أعضاء فى مجتمع صحيح . وهم فيما بينهم وبين أنفسهم يخجلون من جهلهم بالأدب خجلا يساوى تماما خجلهم من جهلهم بالمراسم فى حفلات الطبقات الراقية ، أو من عدم مقدرتهم على ركوب الخيل إذا دعوا فجأة إلى ذلك . لأن هناك أشياء معينة ينبغى على الإنسان أن يعرفها ، أو يعرف شيئا عنها ، والأدب واحد منها : تلك هى فكرتهم . وقد عرفوا كيف يظهرون أنفسهم فى مظهر لائق ، ويتصرفون بلياقة فى كل المناسبات ؛ فهم إلى حد لا بأس به فى مستوى « عال » بالنسبة للمسائل اليومية العادية ؛ وهؤلاء القوم من ناحية الصناعة والعمل ينجحون فى وظيفتهم ؛ إلا أنه يجب عليهم حينئذ ألا ينسوا أن المعرفة بالأدب جزء من المستلزمات الشخصية التى لا يمكن أن يستغنى عنها الرجل الذى يقدس احترام النفس . حقا إن بعض الفنون كالرسم والموسيقا مثلا لا يهم كثيرا لكن الأدب « من المفروض أن يعرف كل شخص » شيئا عنه . فالأدب إذن تسلية ساحرة عظيمة ! وهكذا يبقى الذوق الأدبى بغرضين : كشهادة على ثقافة صحيحة . وكتسلية خاصة. وقد حدث أن كنت مرة مع أستاذ فى الرياضيات وهو شاب واسع الأفق فى علوم

الرياضة والألعاب الرياضية وله خطره فى الشطرنج ، ولديه مقدرة عظيمة جداً فى عزف الكمان فقال لى ، بعد أن استمعنا إلى حديث عن الكتب : « نعم ، يجب أن اهتم بالأدب واشغل نفسى به . ثم أردف قائلا : « لقد أهملت الأدب نوعا ما . لكن على كل حال ، مهما عظمت درجة معرفتى بالأشياء الأخرى ، فسوف أخجل من جهلى بالأدب الآن » .

هذا التفكير ، أو أى تفكير يشبهه ، خطأ . وهو فى نظر الشخص الذى يدرك إدراكا حقيقيا معنى الأدب ووظيفة الأدب ، ليس إلا شيئا مثيرا للضحك ، ويؤدى إلى القضاء على تكوين الذوق الأدبى . وإن الناس الذين يعدون الذوق الأدبى مجرد شىء للكمال ويعدون الأدب مجرد شىء للتسلية لن ينجحوا حقا لا فى تحقيق أمنيتهم بالوصول إلى الكمال ولا نصف أمنيتهم باتخاذه أداة للتسلية ؛ مع العلم بأن هذا أعظم وسائل التسلية ، والآخر لا يفوقه كمال آخر فيما يمنحه للانسان من ظرف فى الشخصية أو قوة ذات أثر فعال فى المكانة العالمية للجنس البشرى المتمدين — فالأدب ليس شيئا إضافيا ، إنما هو شرط أساسى للحياة الكاملة . وليس من شأنى مطلقا أن أستعمل المبالغات البلاغية ولذلك لا أظن أنى أتهم بواحدة إذا قلت أن ذلك الشخص الذى لم ينل شرف الدخول فى ساحة الأدب ليس سوى مخلوق لم يستيقظ من نوم ما قبل الولادة . وما هو إلا جنين لم يولد بعدُ ؛ فهو لا يستطيع أن يرى ، ولا يستطيع أن يسمع ولا يستطيع أن يحس بأية حاسة كاملة ، وكل ما يمكنه هو أنه يستطيع أن يأكل طعامه فقط . وإن الذين يدركون الوظيفة الحقيقية للأدب وشعروا بفائدتها ، ليؤلمهم أكثر من أى شىء آخر أن تقع أنظارهم على آلاف كثيرة جدا من أفراد يتحركون على ظهر البسيطة هنا وهناك متوهمين أنهم أحياء فى حين أنهم فى الحقيقة ليس لديهم قسط من الحياة أكثر مما لدى دب فى الشتاء .

والآن سوف أخبرك ما الأدب ! لا — إن كل ما أعناه أن أستطيع ذلك ، ولكنى لا أستطيع ، وليس هناك أحد يستطيع . كل ما يمكن هو إلقاء أشعة على ذلك السر ، وإعطاء تلميحات ، ولا يمكن أكثر من هذا . ولذلك سأحاول أن أورد لك تلميحا واحدا ، ولكن لأجل أن أفعل هذا سأرجع بك إلى الوراء إلى تاريخك الخاص ، أو أتقدم بك إليه . فى تلك الأمسية التى ذهبت فيها بقصد النزهة مع صديقك المخلص ، ذلك الصديق الذى لا تخفى عنه شيئا ، أو تقريبا ليس هناك شىء خفى عنه ... ! لقد كنت فى الحقيقة ميالا لأن تخفى عنه ذلك الأمر المخصوص الذى استولى على عقلك فى ذاك المساء . ولكنك حاولت ، بطريقة ما، أن تظهره له ، تدفعك إلى ذلك قوة سحرية لا يمكن مقاومتها ، وساعدك على ذلك أن صديقك كان مرهف الحس ، كتوما للسر وقد أخذ يستدرجك فى رقة ، يدفعه إلى ذلك حب استطلاع مهذب فكنت تتقدم شيئا فشيئا نحو هذا الأمر وتزداد ثقة أكثر وأكثر ، إلى أن تنفست فى النهاية عن همسة من أعماق قلبك ، فصحت قائلا : « ياصديق ، إنها بكل بساطة مفخرة » . فى تلك اللحظة كنت أنت فى دولة الأدب .

وإليك توضيح ذلك : بطبيعة الحال ، بحسب مدلول الكلمة المتعارف عليه لم تكن الفتاة معجزة . ولم يلاحظ صديقك المخلص مطلقا أنها كانت معجزة ، ولا كذلك غيره من الناس ولو كانوا حوالى أربعين ألفا من الشاهدين الممتازين فى الذوق والإحساس . لأنها لم تكن سوى فتاة فقط . وليس فيها ماهو خارق للمادة ، ولا يمكن أن تدعى الفتاة معجزة ، ولو كان لفتاة أن تدعى معجزة ، لجاز لك حينئذ أن تدعو كل جميل ، أو كل شىء تقريبا . معجزة ... كل مافى الموضوع هو أنه : يجوز لك ، أو تستطيع ، أو يحق لك أن تقول ذلك . فى وسط معجزات الكون الكثيرة تنبهت أنت الآن فقط إلى واحدة منها ..

وقد فاض إحساسك بهـذا الكشف ، لدرجة أنك كنت تشعر أنه من المستحيل أن تمسك نفسك عن الحديث عنه ، فكنت تحت وطأة قوة روحية تدفعك لأن تذيع ذلك الكشف وكان لديك إحساس قوى بجمال شيء ما خارق للمادة وأنه يجب أن يشاركك غيرك فى هذا الإحساس . فقد كانت لديك عاطفة نحو شيء ما وأحسست أنه يجب أن تنفس عن نفسك مع شخص ما ، فكنت منجذبا إلى جميع بقية الجنس البشرى .

ومن المهم هنا أن نلاحظ تأثير حالك ونطقك على صديقك . فقد كان يعلم أنها ليست معجزة ، وليس هناك شخص آخر يستطيع أن يجعله يعتقد أنها كانت معجزة . لكنك أنت ، بقوة نظرتك نحوها وصدق تلك النظرة ، وبحرارة رغبتك فى أن تجعله يشاركك فى نظرتك جعلته يشعر لوقت طويل أنه كان أعمى عن معجزة تلك الفتاة .

لقد كنت منتجا أدبا . لقد كنت حيا . ولم تكن عيناك مقفلتين ولم تكن أذناك عاجزتين عن إدراك جزء ما مما فى العالم من جمال وعجب ، ثم أرغمتك غريزة قوية فيك أن تخبر شخصا ما . فلم يكن ليكفيك أنك قد رأيت وسمعت ، فالآخرون لهم أن يروا ويسمعوا . والآخرون يحق لهم أن يستيقظوا . وقد كان — وأغلب الظن — وإن كنت لا أستطيع الجزم — أن صديقك هذا ، فى اليوم التالى مباشرة ، أو الشهر التالى ، نظر إلى فتاة ما أخرى ، وفجأة رأى أنها أيضا كانت معجزة ! إنه تأثير الأدب .

وصانعو الأدب هم أولئك الذين رأوا وأحسوا المعجزات المثيرة للاهتمام فى الكون . والعظماء من صانعى الأدب هم أولئك الذين كانت رؤيتهم أوسع ، وشعورهم أقوى ، وما كان شعورك الصغير هذا إلا عرضيا ، وربما كان وقتيا ،

لكن هؤلاء حياتهم شعور عميق طويل سار يفكر أن العالم مكان كئيب . ومن الضرورى بالنسبة لك أن تتعلم كيف تفهم أن العالم ليس مكانا كئيبا ، وإنك لفى أشد الحاجة إلى أن يؤخذ بيدك ، حتى تخرج من السرداب الضيق المظلم إلى ساحة الوادى الواسع المضىء ، وكى تصير إحساساتك مرهفة ، ويقوى تذوقك لطعم الحياة الحقيقى ، وتشعر أن قلبك ينبض بدمك أنت وتحت ردائك أنت . وصانعو الأدب هؤلاء يجيلونك ندا مساويا لهم .

وليس الغرض من الدراسة الأدبية التسلية فى ساعات الفراغ ؛ إنما هو إيقاظ الإنسان ، هو جعله حيا ، وتقوية مقدرته على الإحساس بالسرور ، وعلى المشاركة الوجدانية ، وعلى الإدراك الحقيقى التام . وليس الغرض أن يكون تأثيره ساعة واحدة ، بل أن يكون أربعا وعشرين ساعة كل يوم ، هو أن يغيّر علاقة الإنسان بالعالم تغييرا تاما . وإن فهم قيمة الأدب معناه فهم قيمة العالم ، ولا يعنى شيئا آخر ، وليس الأجزاء المنعزلة أو المنفصلة من أجزاء الحياة ، بل كل الحياة ، مرتبطة ، ومجتمعة معا فى خريطة واحدة مؤتلفة ! فروح الأدب شأنها العمل على الاتحاد ؛ تربط بين الشمعة والنجمة فترينا ، بسبب ما فى الصورة الأدبية من سحر ، أن الجمال فى أقلهما أعظم . ولا تكتفى بإظهار الجمال ، ولا بجمع الأشياء كلها بعضها مع بعض مهما كان ما تحويه ، بل إنها تغرس فينا حكمة ذات مغزى عظيم وذلك بالبحث عن السبب والأثر العاطفى وتتبعهما فى كل مكان . فهى تسرى عن النفس من ناحية مزدوجة : باظهار الجمال الذى لا مجال للشك منه ، وبالبرهنة على أن حظنا فى ذلك عادى قليل . وهى صيحة مكتشف سامية تقدم مشاركة وجدانية وتطلبها فى حركة واحدة . حقا قد يحدث أن يكون الإنسان عرضة لأن ينسى حقيقة معنى الأدب وفائدته إذا اشتغل ببعض الدراسات الأدبية كأن يستمع إلى محاضرة عن مصدر العقدة عند شكسبير ، أو يدرس بحوث

جورج سانتسبرى عن أصول العروض الانجليزى أو يوازن بين البراهين المؤيدة أو المعاوضة للزعم القائل أن روسو كان وغدا خبيثا . لكن يحسن بنا أن نذكر أنفسنا أن الأدب أولا وآخرا هو وسيلة الحياة وأن القيام بتكوين الذوق الأدبى للانسان معناه القيام بتعليم الإنسان أحسن طريقة لاستعمال هذه الوسيلة للحياة. فالناس الذين لا يريدون أن يحيوا ، الناس الذين يهرعون إلى الخمول والجمود ، ويفضلون أن يظلوا فى سبات عميق على أن تكون فيهم حرارة الشعور ، سوف يكون من الحكمة لهم أن يتجنبوا الأدب . وخير لهم كما ورد فى أحسن تعبير شعرى أن « يجلسوا فى حلقة ويأكلوا توتا » .

فمنظر « الإلهام الإلهى المتأجج » قد يحدث اضطرابا فى أعصابهم .

الفصل الثانى

حالة القارىء الخاصة

إن شعور الشخص العادى المتزن نحو الكلاسيكيات فى لغته القومية هو شعور الريبة وفقدان الثقة وكدت أقول : شعور الخوف . وإذا أردنا مثالا لأدب كلاسيكى هنا فلن آخذ حالة شيكسبير لأن شيكسبير « يُعَلَّم » فى المدارس؛ أى إن كل السلطات التعليمية تتكاتف جميعها فى جهد متواصل ثابت ليجعلوا كل صبى فى البلاد عدوا لشيكسبير مدى الحياة . (وإنها لنعمة كبرى أنهم لا يعلمون بلاك) .

ولكنى سآخذ على سبيل المثال سير توماس براون لأن الشخص العادى ليس لديه منذ الصغر ذكرى عدائية نحوه ، وإن كان من المتوقع أن يكون قد قرأ فى مكان ما أن أسلوب سير توماس براون لا يفوقه أى شىء فى الأدب الانجليزى . وقد يرى فى يوم ما كتابا له فى واجهة مكان لبيع الكتب ، (أو بالأحرى خارج الواجهة لأنه ، قد يتردد فى دخول مكان البيع) ثم يشتريه على سبيل التجربة الهادئة ، غير متوقع من هذا الكتاب أن يخلب لبه ؛ لأن هناك غريزة عميقة فيه تخبره أن سير توماس براون ليس مما « يصلح له » ؛ فتكون النتيجة أن يحس فتنة أقل مما كان يتوقع . يقرأ المقدمة ، ويلقى نظرة على الصفحة الأولى ، أو الصفحتين الأوليين من الكتاب ، فلا يرى شيئا إلا كلمات ، ولا يجذبه الكتاب نحوه بأية حال ، كأنما تحيط به أشجار ولكنه لا يستطيع أن يرى الغابة . فيضع الكتاب

بعيدا . ثم إذا جاء ذكر سير توماس براون فانه يقول : « حقا، إنه لطيف جدا ! » مع شعور بالخجل، أنه على أية حال قد اشترى وفحص سير توماس براون ، وفى سويداء قلبه يخامره شك عميق أن الناس الذين يهيمون بسير توماس براون مغرورون ومخدوعون . وبعد سنة أو نحو ذلك حينما يفيق من خور الهزيمة الذى سببه سير توماس براون يُحتمل إذا كان شابا مملوءا بالأمل أن يعيد التجربة مع أديب آخر ، ولكن النتيجة ستكون حتما هى هى !! وهكذا تستمر الحال ربما لعشر سنوات ، إلى أن تنتهى تجاربه مع الكلاسيكيات ! ذلك — بصرف النظر من المجلات والقصص الخيالية الحديثة — هو التاريخ الأدبى للشخص العادى المتزن .

حتى فى حالتك أنت أيها القارىء ، مع أن بالك مشغول بأفكار كثيرة عن الأدب ، فإن لديك قلقا معينا يشبه تلك الحالة الكئيبة التى لدى الشخص العادى فأنت ، على أية حال ، لا تُقبل على الكلاسيكيات بنفس الإحساس الذى تقبل به على قصة جديدة كتبها مؤلف حديث قد استولى على خيالك .

فمثلا إذا كنت تقرأ ، وأنت فى فراشك ، كتابا مثل « التدهور والسقوط » لجيبون ، لم يحدث أن قلت لنفسك : « حسن ، يجب أن أقرأ فصلا آخر قبل أن يأخذنى النوم » ! ولعل السبب فى ذلك أنك تعتقد أن الكلاسيكيات ، على العموم ، لا تهب الانسان سرورا يتناسب مع شهرتها . أو لأنك تتابع قراءتها فى الوقت الذى يستولى عليك فيه إحساس بأنك تقوم بواجب ، إحساس بأنك تعمل عملا صوابا ، إحساس بأنك « تصلح نفسك » أكثر من إحساس بالسرور وبالفرح ، ولا تتلمظ بشفتيك من فرط الإحساس بالمتعة ، غاية ما فى الأمر أنك تقول : « ذلك مفيد لى » . وقد تضع خططا قليلة للقراءة ، ولكن سرعان ما تخترع أعذارا للقضاء على تلك الخطط . ومن المؤكد حينئذ أن أى شىء جديد ،

أى شىء ليس كلاسيكيا سوف يجذبك إليه ويجعلك تبتعد عن الكلاسيكى .
وقد يكون حسنا جدا أن تتظاهر بالموافقة على ما يقرره النقاد الخبيرون من أن الرواية الكلاسيكية المعينة مثلا من أعظم الروايات فى العالم — ولكن كتابا جديدا أو على الأقل عددا حديثا من مجلة سوف يجعلك تهمل هذه الرواية الكلاسيكية . وحتى الكتاب الجديد كذلك تماما لا يمكنك الاحتفاظ به أياما قلائل دون أن تأنف منه النفس وينقلب حامض المذاق ! لهذا كان من الضرورى أن تفرض على نفسك قوانين يجب التزامها مثل : « لن أقرأ أى شىء آخر حتى أقضى ساعة على الأقل كل يوم فى قراءة هذا المؤلف الكلاسيكى المعين ، كأن الكلاسيكى فى نظرك برشامة يستلزم ابتلاعها شيئا من المربى ! وكلما كان الكلاسيكى أحدث كان أكثر شابهة لمادة عصرك ، وكلما قلت شابهته لكلاسيكية القرون السابقة كان أكثر سهولة وإغراء . ومن هنا يسرك أن يمد من الكلاسيكيين أدباء مشهورون تميل نحوهم لأنك حقا تتمتع بهم تمتعا عظيما .
ووجداناتك التى تهيم بهم تتصل بوجداناتك التى تهيم « بقصة جيدة مسلسلة » فى مجلة .

ربما أكون قد بالغت فى تصوير حالتك ، لكنى من ناحية أخرى ربما أكون قد فهمت النواحى التى لا تسر فى حالتك الخاصة ، وأغلب الظن أنك سترى فى المرآة ، التى أمسكها أمامك ، الشكل التقريبى لشبهك ويخيل إلى أنك لا تحب مطلقا . أن تعترف بهذا ، لكن الحال كذلك تماما . فلست أنت راضيا عن نفسك ، ولديك الرغبة الملحة فى أن تكون أديبا ، وتشعر أن هناك شيئا ما خطأ فيك ، ولكنك لا تستطيع أن تضع أصبعك على مركز الداء . بل

إن الحقيقة أكثر من هذا ، وهى أنك تشعر أنك تخدع نفسك بعض الشيء . فهناك شيء ما فى داخليتك ، يرغمك دائما أن تظهر شغفا بالكلاسيكيات فى الوقت الذى لا تشعر فيه أنت بهذا الشغف عن إخلاص حتى إنك لتحاول أن تغرى نفسك بأنك تشعر بمتعة من كتاب ، فى حين أنك فى اللحظة التالية ترمى به وسط النهار وتنسى أن تعود إليه .

ومن وقت لآخر تشترى كتبا كلاسيكية ولا تقرؤها مطلقا ؛ فكأنك تقرر عمليا أنه يكفى أن تمتلك هذه الكتب ، وأن مجرد تملكها يمنحك صكا بأنك تعرف كل ما فيها .

والحقيقة هى أنك مخادع كذاب ، وفى نفسك بحر خضم من تأنيب الضمير . وإنك لتتأمل حالك ثم تتحدث إلى نفسك قائلا : « يجب علىّ طبقا لما يقوله ماتيو أرنولد أن أهيم إلى درجة الجنون بتوطئة وردزورث . ولكنى لست كذلك . لماذا ؟ أيجب على أن أتعلم ، وأن أقوم بشوط واسع فى الدراسة لكى أهيم إلى درجة الجنون بتوطئة وردزورث ؟ أم إنى ولدت بدون ملكة الذوق الخالص فى الأدب بالرغم من اشتياقى الغامض ؟ إنى لأتمنى من كل قلبي أن لو أتلظ بشغفي من شـــدة ما أحسه من حلاوة فى توطئة وردزورث . كما فعلت مع تلك القصة الرائعة التى كتبها ذلك الأديب العظيم فى المجلة الفلانية ... ... » نعم أنا ، واثق من أنك فى لحظاتك الروحية التى لا ترضى فيها عن نفسك ، تحدث نفسك بهذه العبارات . كما أنى واثق أنى قد شخصت حالتك تشخيصا تاما .

والآن فهمة تـكوين الذوق الأدبى لدى الإنسان أمر محبوب ، وإذا لم يعتقد الإنسان أن ذلك أمر محبوب فلن ينجح . لـكن هـذا ليس معناه أن ذلك أمر سهل أو يسير ؛ فالعمل على هزيمة شخص رياضى عظيم فى لعبته أمر محبوب ، لـكن معناه عمل صادق مستمر .

تلك حقيقة يجب أن تعرف ولا تغيب عن البال مطلقاً ! فبكل تأكيد لن تحقق طموحك — أعنى ذلك الطموح العظيم ، ذلك الطموح الذى تحب أن يكون له أثر — بمجهود متقطع خائر العزيمة . بل يجب أن تبدأ بعزيمة قوية تـكفى لتحقيق ذلك ، يجب أن ترتفع إلى قمة الأمر . يجب أن يرسخ فى نفسك أنك تعمـــــل على الوصول إلى تحقيق أمنية عظيمة ، فيجب أن تلتزم خطة عظيمة . لذلك يجب أن تضع علامة مميزة على ورقة كل يوم فى التقويم الفلـكى تنبهك إلى ما يجب عليك القيام به كشىء له جلاله ومهابته ، فالطبيعة الإنسانية ضعيفة . وتحتاج فى أداء ما يطلب منها إلى مساعدات كلهـا حِيَـل ، حتى فى الجرى وراء السعادة .

ولهذا فالوقت ضرورى لك ، ويجب أن يكون وقتاً محدداً بانتظام وله قداسته واحترامه . نعم هناك كثير من الناس يؤكدون أنهم لا يستطيعون أن يلتزموا نظاماً معيناً ، وأن هذا النظام يمت فيهم الخمول . ولـكنى أعتقد أن ذلك قد يكون حقاً فى فئة قليلة جداً منهم ، أما بقية هؤلاء القوم فليست ممارستهم لاتباع النظام إلا مجرد محاولة للاعتذار عن الـكسل . وأغلب الظن عندى أنك أنت شخصياً قادر على اتباع النظام . ولهذا أستطيع أن أجزم أنك إذا خصصت فى عزيمة قوية ثابتة ساعات معينة محددة فى أيام معينة محـددة من أيام الأسبوع

للعمل فى تكوين ذوقك الأدبى ، فإنك سوف تصل إلى الهدف بأسرع مايكون. فالشىء البسيط الذى سيساعدك هو العزيمة . وهذا أول تمهيد .

أما التمهيد الثانى فهو أن تجعل الكتب محيطة بك لتخلق لنفسك جو الكتاب . فالناحية المادية المجردة للكتب مهمة — وأهميتها أعظم مما قد تظهر لمن ليست لديه خبرة .

ومن الناحية النظرية لا يحتاج الطالب (فيما عدا كتب المراجع) إلا إلى كتاب واحد فى وقت واحد . والشخص الذى يهوى الأدب يمكنه من الناحية النظرية أن ينمى ذوقه بإنفاق سبعة قروش فى الأسبوع أو قرش واحد فى اليوم لكتاب كلاسيكى قيمته سبعة قروش ، وهكذا كتاب بعد كتاب ، وبذلك يمكنه أن يخزن مكتبته فى صندوق قبعة أو علبة « بسكوت » ولكن من الناحية العملية يجب أن يكون ذا عزيمة هائلة لكى ينجح فى مثل هذه الحالة . فلا بد أن يتملق العين ، ولا بد أن يتملق اليد ، ولا بد أن يتملق شعور الملكية ، ولا بد أن تبذل التضحيات فى سبيل الحصول على الأدب ، فالشىء الذى يكلف تضحية يكون دائماً عزيزاً . وسوف نورد فيما بعد مشروعاً تفصيلياً لشراء الكتب ، فى ضوء معرفة أوسع[١] . ولكن فى الوقت الحالى اشتر — اشتر كل ما حاز رضا خالصاً من النقاد الذين يعتمد عليهم . اشتر كل ماتستطيع دون أى اهتمام مباشر بما تقرأ . اشتر ! اجعل نفسك محاطة بمجلدات أنيقة

---

(١) يشير المؤلف الى مشروع المكتبة الإنجليزية التى ينصح بها ، وقد حذفناها من الترجمة لعدم جدواها للقارىء العربى كما أشرنا الى ذلك فى المقدمة .

بأقصى ما يمكنك . وأما بالنسبة للقراءة فكل ما أهتم به الآن بنوع خاص هو تذوق عام شامل لكى تحصل على نوع من الألفة لمنظر « الأدب فى كل فروعه » . وعلى كل يجوز أن نقترح على سبيل التمرين المفيد أن تمر على صفحات مجلد من دائرة معارف للأدب فقد يثير إعجابك بعض مؤلفين فيه بما يومضون لك من جاذبية وميل ، وعند ذاك ينبغى أن تدون مذكرة بهؤلاء المؤلفين .

الفصل الثالث

خصائص الكلاسيكى

تهتم الغالبية الكبيرة من زملائنا المتحضرين بالأدب اهتمامهم بالآثار القديمة ولوائح السلطة التشريعية . فهم لا يتجاهلونه ؛ ولا تعدم فيهم المبالاة به تماماً ، لكن اهتمامهم به ضعيف وقليل ؛ وإذا حدث أن كان اهتمامهم به عنيفاً ، فإنه يكون لفترة ما فقط .

ولئن سألت مائتى ألف شخص ممن كان شغفهم بالرواية الشعبية سبباً فى انتشارها منذ عشر سنوات عن رأيهم فى تلك الرواية الآن ، فسوف تجد أنهم قد نسوها كلية وأنهم لن يحلموا بقراءتها مرة ثانية أكثر من قراءتهم لكتاب لا يثير اهتمامهم ، وإذا قرءوها مرة ثانية فربما لا يستمتعون بها — لا لأن الرواية المذكورة أصبحت الآن أردأ منها منذ عشر سنوات ؛ ولا لأن ذوقهم قد تحسن عن ذى قبل — بل لأن هؤلاء ليس لديهم تمرين عملى كاف يمكنهم به الاعتماد على ذوقهم كوسيلة للسرور الدائم . وهم بكل بساطة لا يعرفون من يوم لآخر ماعساه أن يسرهم .

وبمواجهتنا لهذه الحقيقة قد يكون للإنسان أن يسأل : لماذا تستمر شهرة المؤلفين الكلاسيكيين عظيمة وعالميـــة ؟ والجواب هو أن شهرة المؤلفين الكلاسيكيين مستقلة استقلالا تاماً عن الأغلبية . وهل تظن أن شهرة شيكسبير كانت ستستمر أسبوعين لو كانت متوقفة على رجل الشارع ؟ إن شهرة المؤلفين

الـكلاسيكيين خلقها وحافظ على خلودها أقلية ذات إحساس مرهف . وحتى حينما يشعر مؤلف من الطبقة الأولى بلذة النجاح الباهر فى حياته ، فإن الأغلبية لم تـكن لتقدره بإخلاص كما يقدرون رجال الطبقة الثانية ، بل أنه يستمد القوة من حرارة العاطفة التى لدى الأقلية ذات الإحساس المرهف . وفى حالة المؤلف الذى يرتفع إلى قمة المجد بعد موته يرجع السبب الوحيد فى تلك النتيجة السارة إلى قوة ثبات الأقلية على رأيهم . فما كانوا ليستطيعوا أن يتركوه وحيداً . وما كانوا بفاعلين . بل استمروا على الاستمتاع بتذوقه والحديث عنه ، وشراء إنتاجه ، وكان شعورهم نحوه حاراً ينبع من الأعماق ، وكانوا على يقين من ذوقهم ، وواثقين جـداً من أنفسهم لدرجة عظيمة جعلت الأغلبية فى النهاية تألف جرس اسمه وتوافق فى هـدوء تام على الرأى القائل بأنه كان عبقرياً . فالأغلبية فى الحقيقة لم تهتم كثيراً فى كلتا الحالتين .

وبسبب الأقلية المرهفة الإحساس تظل شهرة العبقرى حية من جيـل إلى جيـل . فهؤلاء القلة فى عمل مستمر ، وهم على الدوام دائبو البحث لـكشف العبقرى ، وحبهم للاستطلاع وشغفهم بالبحث لا يعتريهما تعب ، ولذلك يندر أن تـكون هناك فرصة لترك عبقرى مجهولا . وهم فوق ذلك دائماً يعملون إما فى جانب رأى الأغلبية أو ضده . حقاً إن الأغلبية تستطيع أن تخلق شهرة ولـكنها لا تهتم مطلقاً بالمحافظة عليها . وإذا حـدث مصادفة أن اتفقت الأقلية ذات الشعور المرهف مع الأغلبية على أن مثالا معيناً يستحق أن يكون ذا شهرة فإنهم من وقت لآخر سوف يذكّرون الأغلبية بوجود تلك الشهرة ، وحينئـذ سوف توافقهم الأغلبية فى تـكاسل وعدم اكتراث قائلين : « نعم ، ومادمتم قد ذكرتم ذلك فيجب ألا يغيب عن البال أن هذه الشهرة حقاً موجودة » .

فالشهرة بدون هذا التذكير القوى الدائم للعقول سرعان ما تنحدر إلى زوايا

النسيان الذى هو الموت . وللأقليـة ذات الشعور المرهف طريقتهم الخاصة بهم بسبب أنهم حقيقة مشغوفون بالأدب ، وأن الأدب حقاً شىء مهم بالنسبة لهم . وهم ينتصرون بفضل الثبات على رأيهم وحـده ، وبدوام تـكرارهم لنفس القرارات التى أصدروها هم . وهل تعتقد أنهم كانوا يستطيعون أن يقنعوا رجل الشارع بالأدلة والبراهين أن شيكسبير كان فناناً عظيما ؟ كلا ، لأن هذا الرجل لا يستطيع مطلقاً أن يفهم شيئاً من الاصطلاحات التى يستخدمونها . ولـكن حينما يقال له عشرات الألوف من المرات ، وجيلا بعد جيل أن شيكسبير كان فناناً عظيما فإن هذا الرجل سوف يصدق ذلك — لا عن طريق العقل والتفـكير ، بل عن طريق الاعتقاد والتقليد ، وبعد ذلك يظل هو أيضاً يكرر أن شيكسبير كان فناناً عظيما ، ويشترى إنتاج شيكسبير كاملا ، ويضعه على رفوفه ، ثم يذهب إلى المسرح ليرى التأثير العجيب الذى يصاحب رواية الملك لير أو هملت ، فيعود معترفاً عن إيمان أن شيكسبير كان فناناً عظيما . كل هذا سببه أن الأقلية المرهفة الإحساس لم يستطيعوا أن يحتفظوا لأنفسهم بإعجابهم بشيكسبير . إن هذا ليس هزلا ، ولـكنه حقيقة . ويجب على هؤلاء الذين يرغبون فى تـكوين ذوقهم الأدبى أن يدركوها .

وما السبب الذى يجعل هـذه الأقلية ذات الشعور المرهف تجاوز الحد فى الاهتمام العظيم بالأدب ؟ هناك إجابة واحدة فقط ، هى أنهم يجدون فى الأدب سروراً عظيما لا ينتهى . فهم يستمتعون بالأدب كما يستمتع بعض الناس بالخمر ، وتـكرار تجدد هذا السرور بطبيعة الحال يجعل اهتمامهم بالأدب حيا حياة قوية على الدوام . وهم باستمرار مشغولون بأبحاث جديدة ، ودائماً يجرون التجارب على أنفسهم ، ويتململون ليفهموا أنفسهم ، ويتململون ليعرفوا ما يريدون . وكلما طالت تجربتهم وامتدت نما ذوقهم وأصبح أقوى تمكنا ورسوخاً ، وهم لا يستمتعون

اليوم عما عساه يظهر لهم فى الغد مملا . وإذا وجدوا كتاباً يبعث السآمة والملل فلن يستطيع أى عدد من جمهور يصيح بأعلى صوته أن يغريهم به فيردهم عن رأيهم ويحملهم يعتقدون أن هذا الكتاب منبع للسرور والمتعة ؛ وإذا وجدوا كتاباً ساراً فلن يستطيع السكوت البارد من جماهير الشارع أن يؤثر على عقيدتهم أن هذا الكتاب جيد ودائم الجودة . فلهم ثقة فى أنفسهم ، وهم مؤمنون بأنفسهم . وإذا كان الأمر كذلك فما تلك الخصائص التى توجد فى الكتاب فتبعث فى الأقلية المرهفة الشعور سروراً قوياً لا ينتهى ؟ هذا سؤال صعب جداً لدرجة أنه إلى الآن لم يجب عنه إجابة تامة . فقد تتحدث حديثاً خفيفاً عن الحق ، وبعد النظر ، والمعرفة ، والحكمة ، والدّعابة ، والجمال . ولكن هذه الكلمات اللطيفة لن تأخذك فى الحقيقة بعيداً جداً لأن كلا منها يجب أن تُعرّف خصوصاً الأولى والأخيرة . وقد يحسن فى نظر كيتس بطريقته الخفيفة الروح أن يزعم أن الجمال هو الحق ، والحق هو الجمال ، وأن ذاك هو كل ما يعرفه ، أو ما يحتاج أن يعرفه . أما أنا شخصياً ففى حاجة إلى أن أعرف أكثر من ذلك ، لكنى لن أعرفه . وليس هناك أحد ، حتى هازلت ولاسانت بيف استطاع أن يوضح فى النهاية السبب فى اعتقاده أن كتاباً ما جميل . ولآخذ أول بيتين جميلين وقعا فى يدى :

إن غابات أركادى ميتة

وقد انتهى مرحها القديم

فأقول أنا إن هذين البيتين جميلان ، لأنهما يمنحانى سروراً لكن لماذا ؟ ليست هناك إجابة ! وكل ما أعرفه هو أن الأقلية المرهفة الشعور سوف يوافقوننى تماما على الاستمتاع بهذا السرور الخفى فى هذين البيتين .

وإنى لواثق كل الثقة من أن المحبوبة التى فى سرورنا بهذين البيتين وفى غيرهما من الأبيات لنفس المؤلف سوف تجعل الأغلبية فى النهاية تصدق عن عقيدة أن و . ب ييتس عبقرى ، والمظهر الوحيد الذى يجعل الإنسان مطمئناً من الناحية الأدبية فيه هو أن تتحرك مشاعر الأقلية المرهفة الإحساس بنفس الأشياء التى تثير مشاعره . وإن إستمرار الاهتمام ، مع عمل حقيقى ، يؤدى فى النهاية إلى نفس الأحكام التى تصدرها الأقلية المرهفة الشعور .

وليس هناك من فرق إلا فى سعة محيط الاهتمام . وبعض الأقلية ذات الإحساس المرهف ينقصهم صفة العموم ، أو بالأحرى ، يجعلون كل اهتمامهم محصوراً فى نطاق واحد ضيق بحيث يستغرق نشاطهم كله ولا يترك منه شيئاً . وهؤلاء الرجال يساعدون خاصة فى تنمية الشهرة للعباقرة الأضيق نطاقاً مثل كراشو ولكن استحسانهم القوى لن يتعارض مع حكم الأقلية المرهفة الشعور ؛ بل يقويه .

فالكلاسيكى إنتاج يمنح السرور لأقلية تهتم فى حرارة عميقة وعلى الدوام بالأدب . وهو يظل حيا دائما بسبب أن تلك الأقلية التى تتلهف على تجدد الإحساس بالسرور ، قد لازمها حب الاستطلاع على الدوام ، وهى لذلك مشغولة دائما فى عملية كشف مستمرة دون انقطاع . فالكلاسيكى لا يخلد لسبب أخلاقى ، ولا يخلد لأنه يطابق قوانين معينة ، ولا لأن التجاهل لا يمكن أن يقتله . بل إنه يخلد لأنه منبع للسرور ، ولأن الأقلية المرهفة الشعور لا يستطيعون أن يتجاهلوه كما لا تستطيع النحلة أن تتجاهل الزهرة . والأغلبية المرهفة الشعور لا يقرءون «الأشياء الصواب» لأنها صواب . فذلك مثله أن تضع العربة أمام الحصان .

وما كانت «الأشياء الصواب» صوابا إلا لسبب واحد فقط هو أن الأقلية

المرهفة الشعور « يحبون » قراءتها . ومن ثم — وأنا الآن أصل إلى النقطة التى أريدها — كان العنصر الأولى الجوهرى للذوق الأدبى هو الاهتمام الحار بالأدب. فإذا كان لديك ذلك ، فإن كل البقية سوف تأتيك . ولا يضيرك مطلقا أنك فى الوقت الحالى لا تستطيع أن تجد سرورا فى كلاسيكيات معينة . فالقوة الدافعة التى فى اهتمامك بالأدب سوف تضطرك لاكتساب خبرة ، وتلك الخبرة سوف تعلمك كيفية استعمال وسائل السرور . غاية ما هنالك أنك لا تعرف الطرق السرية لنفسك : ذلك هو كل ما فى الأمر . وإن إستمرار الاهتمام سوف يجلب لك حتما أقوى أنواع السرور .

ولكن الخبرة بطبيعة الحال يمكن أن تكتسب ، بحكمة أو بغير حكمة ، كما يمكن أن تصل إلى بوتنى Putney عن طريق ولهام جرين[1] Walham Green أو عن طريق موسكو Moscow .

---

(١) ضاحية عديدة لندن .

الفصل الرابع

من أين تبدأ

إنى لأعنى بنوع خاص ألا يروع قرائى مايتراءى من السعة والتعقيد فى مهمة تكوين الذوق الأدبى ، فهى ليست واسعة جدا ؛ ولا معقدة جدا كما تظهر . وإن المشغوف بالأدب ، ممن لاخبرة له ، لا يحتاج مطلقا إلى أن يضطرب أو يخيف نفسه بالتفكير فى « الأدب بكل فروعه » . فلقد كان لغرض الراحة والسهولة أن شقق ذوو الخبرة والمربون الأدب إلى أقسام وفروع — كشعر ونثر . أو خيالى وفلسفى وتاريخى ؛ أو رثائى ، وحماسى ، وغنائى ، أو دينى ودينوى ، وهكذا إلى مالا نهاية له . ولكن الحقيقة العظمى هى أن الأدب كله شىء واحد — وأنه لا يتجزأ . ففكرة وحدة الأدب ينبغى أن تغرس فى الأذهان وأن تربى فيها وتتعهد بعناية تامة . لأن الأدب كله ليس إلا تعبيرا عن الشعور ، عن الوجدان ، وعن العاطفة ، سببه الإحساس بما فى الحياة من مثيرات للاهتمام . فلو بحثنا مثلا عما يدفع المؤرخ إلى كتابة التاريخ . لوجدنا أنه لاشىء سوى شعور شامل استولى عليه بسبب الإحاطة بالأزمان الماضية ، فهو مدفوع إلى أن يحاول إعادة تكوين صورة للآخرين ، ومن ثم إذا لم تفلح فى إدراك أن المؤرخ يكون ذا عاطفة قوية يحاول أن ينقل عاطفته إلى الآخرين ، فاقرأ من مذكرات جيبون الفصل الذى يختتم به كتابه « التدهور أو السقوط » وإن تنظر ثانية إلى « التدهور والسقوط » كمثل « جاف » .

وما يقال عن التاريخ يقال عن الفروع الأخرى « الجافة » . فحتى معجم جونسون متضمن عاطفة . وإذا أردت الدليل على ذلك فاقرأ آخر فقرة من التمهيد له ، فقد قال فيها : « إذا ظهر فى هذا العمل ، أن شيئا كثيرا لم يذكر ، فلا ينبغى أن يُنسى أن أعمالا كثيرة قد وقع فيها مثل ذلك ... ولربما يكبح من جماح نشوة النصر لدى الناقد الخبيث أن يلاحظ أنه إذا كانت لغتنا لم تعرض هنا عرضا كاملا ، فإنى أخفقت فقط فى محاولة لم تستطع قوى البشر حتى الآن أن تتمها ... » ويستمر هكذا إلى أن يختتم قائلا : « لقد أخرت إظهار عملى هذا إلى أن توى فى القبر معظم أولئك الذين كنت أتمنى أن أدخل السرور عليهم ، وما النجاح والإخفاق إلا أصوات جوفاء : ولهذا لا أهتم بها ، فى طمأنينة باردة ، مع قليل من خوف اللوم أو من أمل فى الثناء . » نعم طمأنينة ؛ ولكن غير باردة . فالفقرة كلها ، وهى من أحسن النثر الانجليزى ، تتسم بحرارة العاطفة . ويمكن أن تكتشف نفس الميزة فى كتب أخرى مثل « المبادىء الأولى » لسبنسر ، ويمكن أن تكتشفها فى كل مكان فى الأدب ، من النار الباردة فى « تهكم بوب » إلى الحرارة المتأججة فى سوينبرن . فالأدب لا يبدأ إلا عندما تكون العاطفة قد بدأت .

وليس هناك من فارق جوهرى يمكن تحديده حتى بين هـذين الفرعين العظيمين : النثر والشعر ، لأن النثر يمكن أن يكون فيه مقاطع موسيقية ، وكل ما يمكن أن يقال هو أن النظم يمكن أن تقطع تفعيلاته فى حين أن النثر لا يمكن ذلك فيه . فالفرق شكلى محض ، وقليل جدا من الشعراء قد نجحوا فى أن يكونوا شاعريين مثل أشعياء وقد نجح سير توماس براون ورسكن فى النثر .

وكل ما يمكن أن يقرر هو أن الأدباء ، على وجه العموم ، قد أظهروا ميلا فطريا إلى اختيار النظم للتعبير عن أرق درجات العاطفة . فالأدب الرفيع يوجد

فى النظم ، ولـكن أحسن قطعة فى النثر تقترب جدا من أحسن قطعة فى الشعر لدرجة أنه يصعب جدا وضع حد فاصل بينهما . وإذا ما أخذ الشعر على أنه مايفهم أحسن ، فإن الأدب كله شعر ، أو على أية حال شعرى فى الـكيف . ولقد خلدت اتهامات ما كولى الـكاذبة الظالمة لأن عاطفته الصادقة القوية جعلتها شعرا فى حين أن أغانى روما القديمة التى له ماتت لأنها لم تـكن تعبيرا عن عاطفة صادقة قوية . وكلما تطور الذوق الأدبى أمكن إدراك هذه الخاصية وهى العاطفة على التدريج بازدياد وسعة فى الأدب ، سواء أكبحت هذه العاطفة أم جمحت . فهى الخاصية التى يجب أن يبحث عنها . وهى الخاصية التى تـكون السبب فى وحدة الأدب (وكل الفنون) .

وليس عديم الجدوى فقط ، بل مضر كذلك أن تفصل الأدب إلى أقسام وفروع ، مع اختلاف فى القوانين أو الأحكام والقواعد . فأول شىء هو أن تحصل على بعض مِلـكية الأدب . وحينما تشعر حقا ببعض العاطفة التى جاهد المؤلفون العظماء ليوصلوها إليك ، وحينما تصبح عواطفك كثيرة ومختلطة جدا لدرجة أنك تشعر بالحاجة إلى تنظيمها وتسميتها بأسماء ، حينئذ فقط — لا قبل ذلك — يمكنك أن تبدأ فى دراسة ما قد حاولته من حيث تقسيم الأدب وتمييز أنواعه . حقا إن الـكتب اليدوية الصغيرة والرسائل أشياء ممتازة فى نوعها ، لـكنها بكل بساطة لاوزن لها فى البداية . ولن تستطيع الوصول حقيقة إلى أفـكار عامة مفيدة إلا بالحصول أولا على أفـكار معينة ، ثم تجمع هـــذه الأفـكار المعينة معا فى شكل ملتئم . فذلك شىء ضرورى لتكوين فـكرة عامة ، كما أنه لا يمكن أن تصنع آجرا بدون تبن . ولا ينبغى أن تقلق بالك حول الأدب ، لامن ناحية المفهوم ، ولا من ناحية النظريات حول الأدب . بل اقصد إليه ، وعض عليه بالنواجذ كما يعض الجائع على قطعـة من طعام

شعى[1] ، ولئن سألتنى من أين ينبغى لك أن تبدأ ، فسوف أرنو إليك كما قد أرنو إلى حيوان مخلص القلب يستفسر منى عن أية ناحية من العظمة ينبغى له أن يهجم عليها • فلا يهم مطلقا معرفة من أين تبدأ . بل ابدأ من حيث يقودك الهوى إلى البدء به . فالأدب كله وحدة متحدة لا تتجزأ •

هناك شرط واحد فقط . هو أنه يجب أن تبدأ بشيء كلاسيكي معترف به ؛ يجب أن تتجنب الانتاج الحديث • والحكمة فى ذلك لا تعنى أى تحقير للعصر الحاضر على حساب العصور الماضية •

وهنا ينبغى ألا يغيب عن البال حقيقة مهمة هى أنه إذا كنت ترغب فى أن تحصل فى النهاية على ذوق واسع عام ، فإياك والزعم الشائع الذى يدعى أنه ليس هناك من الانتاج الحديث ما يصمد للموازنة بينه وبين الكلاسيكيات وهذا الزعم موجود على الدوام ، إذ لا يخلو عصر مطلقا من أناس ليست لهم مهمة إلا أن يتنهدوا قائلين :

« آه ، نعم • منذ خمسين عاما كان لدينا قلة من الكتاب العظماء . لكنهم الآن جميعا أموات ، وليس هناك شبان ينهضون لاحتلال مكانهم • » إن هذا التفكير محزن إن لم يكن أحمق ، وهو برهان أكيد على الذوق الضيق . ومن اليقين أنه فى سنة ١٩٥٩ سوف يوجد أشخاص غير عاديين تملؤهم الكآبة وتدور على ألسنتهم تلك العبارة : « آه ، نعم فى بدء هذا القرن كان هناك شعراء عظماء مثل سوئبرن ، وميردث ، وفرانسس تومسون ، وييتس ؛ ومؤلفون للروايات عظماء مثل هاردى وكونراد ، ومؤرخون عظماء مثل ستبس ومتلاند و ... الخ ،

---

(١) فى الأصل : كما يعض الكلب على العظمة .

لكن هؤلاء جميعا أموات الآن ، ومن لدينا الآن ليملأ فراغهم ؟ » . والواقع أننا لانستطيع أن نرى جيلا من الأجيال كما كان على حقيقته — كجماعة من الرجال العباقرة ، قبل أن يصبح هذا الجيل فى غضون التاريخ وقد زال عنه كل ما كان حوله من ملابسات . هذا إلى أننا ننسى المقدار الكبير من الضعف الذى كان فى إنتاج العصور العظيمة . ولئن كانت الكمية الكلية للأدب الذى يخلق فى فترة معينة تختلف من عصر إلى عصر ، فإن هذا الاختلاف لايكون كثيرا . وفى استطاعتنا أن نجزم تماما أن جيلنا نحن سوف يؤثر تأثيرا محبوبا فى أولئك القضاة الممتازين من الجيل الذى يخلفنا . لهذا يجب الحذر من أن تحمل فى نفسك أى احتقار لإنتاج العصر الحاضر . وإذا كان لك أن تتجاهله مؤقتا ، فمش فى جوفكرة مؤداها أن قش هذا الانتاج يحتوى قمحا مساويا فى القدر للقمح الذى تحتويه أية كية مماثلة من قش آخر .

والسبب فى وجوب تجنب الإنتاج الحديث فى البداية هو بكل بساطة أنك لست فى مركز يسمح لك بالاختيار من بين الانتاج الحديث . ولا يوجد مطلقا شخص ما فى مركز يسمح له تماما أن يختار عن بينة واطمئنان شيئا من الانتاج الحديث . فتصفية القمح من القش عملية تحتاج إلى وقت طويل . والإنتاج الحديث يجب أن يخترق حواجز كثيرة من أذواق أجيال متعاقبة ، على حين أن الحال مع الكلاسيكى تكاد تكون على العكس تماما ، لأنه قد اجتاز المحنة بسلام . وكذلك ذوقك يجب أن يخترق حواجز الكلاسيكيات . تلك هى النظرية . فإذا اختلفت مع الكلاسيكى فالمخطىء هو أنت وليس الكتاب . وإذا اختلفت مع انتاج حديث ، فيحتمل أن تكون مخطئا ويحتمل أن تكون مصيبا ، ولكن ليس هناك قاض موثوق به لدرجة تؤهله لأن يصدر حكما فاصلا . فذوقك لم يتكون وهو يحتاج إلى إرشاد، يحتاج إلى إرشاد يوثق به ويُعتمد عليه . لأن الثقة لابد

منها إذا أريد تكوين الذوق الأدبى . به وقد يحسن بك فى أول الأمر على الخصوص ألا توجه اهتمامك نحو كلاسيكى معين .

فاذا اهتممت بذلك بادىء ذى بدء ، فإن ذوقك سوف يتكون بالقدر الذى يتصل بذلك الكلاسيكى ، ولكننا لا نعتقد أن ذوقك سيتم تكوينه فى تلك الحالة .

وكيف لمبتدىء مثلك أن يصل إلى مرحلة الاهتمام به ؟ إن ذلك بطبيعة الحال يكون فى الأصل بفحصه ومحاولة فهمه بأمانة .

لكن هذه الطريقة تحتاج ، من الناحية المادية ، إلى مساعدة ، وهذه المساعدة تأتى عن طريق العمل الذى تقوم به الثقة ، وعن طريق طراز خاص من العقول ، كهذا الذى يقول : « أنا أعرف عن مصدق موثوق به كل الثقة أن هذا الشىء جميل وأنه يستطيع أن يمنحنى سرورا . ومن ثم فإنى مصمم أن أجد سرورا فيه . »

فالثقة لها شأن عظيم فى تنمية ذلك الذوق الواسع الذى هو عدة السرور الواسع لكن يجب أن تكون ثقة قائمة على أساس صادق لا مجال للطعن فيه .

الفصل الخامس

كيف تقرأ الكلاسيكى

ولنبدأ بقراءة تجريبية مع تشارلز لام . وقد اخترت لام لأسباب مختلفة : فهو كاتب عظيم ، وواسع المحيط فى استثارة المشاعر ، وذو طبيعة عاطفية عالية ؛ وقطعه الأدبية الممتازة بسيطة وقصيرة . وفوق هذا يحتمل أن نستفيد منه بأن يقودنا إلى موضوعات أخرى أكثر تعقيداً كما سيظهر فيما بعد .

وإنى لأحس الآن أنك تميل بطبيعة الحال إلى أن تفكر فى تشارلز لام ككتاب لأنه قد وصل إلى مرحلة أصبح فيها كلاسيكيا . لكن يجب أن يكون معلوما أن تشارلز لام كان رجلا لا كتاباً .

ومن الأشياء الضرورية التى لها أهمية قصوى بالنسبة للمبتدىء فى الدراسة الأدبية أنه ينبغى له دائماً أن يكوّن فكرة عن الرجل وراء الكتاب . فما الكتاب إلا تعبير الرجل ، وما هو إلا أن الرجل يحاول أن يتحدث إليك ، ويحاول أن ينقل إليك بعض مشاعره . والقارىء المجرب ذو الخبرة يمكنه أن يتصور الرجل من الكتاب ، ويستطيع أن يفهمه عن طريق الكتاب ، وذلك بطبيعة الحال صحيح منطقياً ولكن المبتدىء يحسن له أن يساعد نفسه فى فهم الكتاب بمعلومات حرة عن الرجل . وبهذا يمكنه فى الحال أن يرى الصلة الوثيقة بين الكتاب والإنسانية ، ويقوى فى عقله الفكرة الأساسية عن

الصلة بين الأدب والحياة . وقديما كان الأدب ينتقل من الفنان إلى الشخص المستقبل مباشرة عن طريق المشافهة فكان هذا النظام مثالياً من بعض الوجوه ، لكن التغييرات التي حدثت في دستور المجتمع جملته مستحيلا . ومع ذلك فإننا ، بتمرين الخيال ، لانزال نستطيع أن نسمع عقليا نبرات الفنان كأنه يتحدث إلينا شخصياً . ولهذا يجب علينا أن نمرن خيالنا لكي نشعر بالرجل وراء الكتاب .

ومن ثم لابد من الحصول على بعض المعلومات التاريخية عن لام . وهناك الكثير من هذا في الكتب التي ترجمت لحياته ، وفي الدراسات الكثيرة التي كتبت كمقدمات للطبقات المختلفة لإنتاج لام . وفي الحقيقة أنه لمن السهل جداً تجميع مواد كثيرة لتصوير لام كإنسان . وحينما تكون لنفسك مثل هذه الصورة اقرأ له في ضوئها مقالات إيليا ، وإني لأختار منها قطعة من أروع ما كتبه هي « حلم الأطفال » . فإذا ما وصلت إلى هذه المرحلة ، ضع كتابي هذا جانباً واقرأ « حلم الأطفال » . ولا تقل لنفسك أنك سوف تقرؤها فيما بعد ، بل اقرأها الآن . فإذا ما انتهيت من قراءتها ، كان لك أن تخطو إلى فقرتي التالية .

يجب أن نعتبر « حلم الأطفال » كوثيقة ، إنسانية . فلقد كان لام يناهز الخمسين حين كتبها . وتستطيع أن ترى خاصة من السطر الأخير أن موت أخيه الأكبر جون لام كان حديثاً وكان شديد الوطأة على عقله . كما يجب ألا ننسى أنه في شبابه أخفق في حبه لفتاة تسمى آن سيمونز تزوجت فيما بعد من رجل يدعى بارترم وكانت جدته فيلد من بين المؤثرات التي أثرت فيه وهو في سن الطفولة ، وقد كانت تتولى الإشراف على قصر يسمى « بيت بلاكسوير في مقاطعة هارتفورد

بشير ، وكان هو أحياناً يمضى إجازاته فى هذا البيت . وكان عزبا يعيش مع أخته مارى التى كانت مصابة بجنون عنيف . ويمكنك أن ترى أن مقالته تكاد تكون كلها تعبيراً رائعاً عن الشعور بالعزلة المتزايدة فى حياته ، وقد استخدم كل هذه اللوحة التمهيدية الرائعة التى يعرض فيها نعمة المتعة الأبوية عرضاً قويا ، لكى يضع بين يديك ما يصور لك ، فى أعنف طريقة ، شعوره بالعزلة فى وجوده وإحساسه نحو كل ما فقده وما ضاع منه فى هذا العالم . فمفتاح المقالة أحد مصادر الحزن العميق ، ولكن يلاحظ أنه يجعل حزنه جميلا ؛ أو ، بالأحرى يظهر الجمال الذى يستكن فى الحزن . فأنت تراه جالساً هناك فى « مقعد العزب » « فتقول لنفسك : » إنه لشىء حزين ، لكنه ، على أية حال « جميل » وفى اللحظة التى تقول فيها ذلك لنفسك ، يكون تشارلز لام ، بالنسبة لك ، قد وصل إلى غرضه الأساسى من كتابته هذه المقالة . أما كيف ينتج هو تأثيره بالضبط ، فذلك لا يمكن مطلقاً توضيحه توضيحاً تاماً ، لكن أحد أسباب نجاحه هو بالتأكيد احترامه للحقيقة والصدق . فهو لم يتخذ من أخيه ولا من القرابة بينهما مثلا أعلى زوراً وبهتاناً ، ولم يكن كالرجل العاطفى الذى يقول : « لم تعكر صفو قرابتنا يوماً سحابة قط . » ولم يبالغ فى وصف وحدته . وكان لديه من الإدراك العام ما مكنه من أن يجمع كل تأوهاته بسرعة لأنه كان رجلا ذا عقلية تامة ناضجة . وإذا أخبرك أن بردجت كانت مصابة بجنون عنيف ، فهو يعنى أنها كانت مخلصة . وسبب آخر لنجاحه هو احترامه الدائم للأشياء الجميلة والأعمال الطيبة ويتجلى ذلك بوضوح من تصويره لها فى حديث عن الصفات الأساسية لجدته وأخيه ، وفى الوصف التفصيلى لبيت بلا كسور والحديقة التى به .

ثم هناك شىء آخر ، هو فى الحقيقة ثانوى بالنسبة للغرض الأساسى وجزء

من آلية الغرض الأساسى ، هو صورة الأطفال — الأطفال منذ بدء ظهورهم حقيقة إلى اللحظة التى يذبلون فيها ويختفون . وقد أبدع الكاتب فى تصوير الطفولة أيما إبداع ، فصورها فى أكثر من مرة تصويراً دقيقاً تاماً ، فى فكاهة ومرح . فهنا جون يضحك كثيراً إلى درجة تجعلك تقول : « إن ذلك حق حقاً » ؛ وهنا أليس الصغيرة تفتح ذراعيها ، وهنا تصدر عن رجل أليس اليمنى حركة اضطرارية إلى أن ألقيت عليها نظرة حزينة ، فتكف » ، وهنا جون يمط حاجبيه ويحاول أن يظهر شجاعاً ، وهنا جون يعيد فى خبث إلى الطبق عنقوداً من العنب . وهنا الأطفال يقمون صارخين ... « ويرجوننى أن أقص عليهم بعض القصص عن أمهم الجميلة الميتة » . ومما فيه من شائق قوله : « هنا أليس تبدى إحدى نظرات أمها العزيزة فى رقة عظيمة ، وبراءة صريحة »وفجأة ، بينما يسير لام فى إعداد تأثيره النهائى الهادىء ، تراه قد أوحى إليك بصورة جديدة معظمة لجمال الأطفال اللهم — فيها يتجلى بوضوح ميلهم للتقليد ، وعواطفهم الرقيقة الكريمة ، ورغبتهم الملحة فى أن يكونوا مصيبين ، وسرعتهم البريئة فى الفرار من الحزن إلى المرح . فهى صورة رائعة ، تستطيع بها أن ترى هؤلاء الأطفال فى وضوح ودقة تقريباً كما رآهم لام . وتأثيرها قوى لدرجة أنه بعد ذلك بأيام لن يمكنك أن تنظر إلى طفل دون أن تستحضر ما صور به لام جمال الطفولة . فهو ولاشك قد شاركك فى إدراك الجمال . وإذا كان لك أطفال فإن لام ، بحديثه عن جمال الطفولة ، يجدد فيك الإحساس بما فيهم من جاذبية تبليها عشرتنا لهم . وفوق ذلك يجب أن يلاحظ أن مقياس نجاحه فى تصوير الأطفال هو مقياس نجاحه فى تأثيره الأدبى . ولئن كان من المؤكد أنه كلما كان الأطفال فى تصوير لام أقرب إلى الحقيقة زاد تأثير هذا التصوير فى إثارة مشاعرنا ، فمن المقطوع به أن هذا التأثير يكون أشد

واقوى إذا علمت الحقيقة الواقعة وهى أن هؤلاء الأطفال ليسوا موجودين حقاً ، بل لم يوجدوا قط . وإذا كنت قد تأثرت بالإشارة إلى « أمهم الجميلة الميتة » فسوف تتأثر أكثر حينما تعلم أن الفتاة التى ربما كانت أمهم ليست ميتة وأنها ليست زوجة للام .

ولا ريب أنك بعد قراءة المقالة سوف تجعلها موضع التأمل وحينئذ سترى أن قوتها العاطفية التى استولت عليك قد نبعت من التعبير الصادق غير المبالغ فيه لعواطف حقيقية فطن إليها شخص كانت عينه مفتوحة دائماً للجمال ، وكان هو حقاً مشغولا بالجمال .

فجمال البيوت والحدائق والأخلاق الفاضلة السالفة ، وجمال الأطفال ، وجمال الصحبة ، والجمال الناعم للأحلام فى مقعد وثير — كل هذه قد جمعت معاً وخلطت بالحزن والأسى اللذين كانا أصل الحالة النفسية . لكن ما السبب فى أن « حلم الأطفال » كلاسيكية ؟ إنها كلاسيكية لأنها توصل إليك ، كما وصلت إلى أجيال قبلك ، عاطفة ممتازة ، ولأنها تجعلك تتجاوب مع خلجات الحياة وأنت أعظم قوة ، وأكثر صواباً ، وأعلى نبلا . وهى فيها القدرة على فعل كل هذا لأن تشارلز لام كان له عقل ممتاز جداً ، وحساس جداً ، وأمين جداً . وعواطفه كانت نبيلة ، وإحساسه كان مرهفاً جداً لدرجة أنه كان مضطرا أن يجد راحة فى توصيل عواطفه للآخرين .

وكانت طرقه العقلية فى منتهى الإخلاص لدرجة أنه لم يكن يستطيع أن أن يبالغ فى الحقيقة ولا أن ينقصها . ولو أن لام عدم واحدا من هذه الخصائص الثلاث لتغير شأنه ، وصار تأثيره ، حتما ، ضيقاً وضعيفاً ، ولم يصبح من الكلاسيكيين . ولكان الأمر حينئذ لا يخلو من أن يكون إما أن مشاعره كانت

قاصرة من إدراك الجمال الفائق ، فتكون فى تلك الحالة أقل اســـتحقاقا لأن توصل إلى الغير وأما أنه لم يكن لديه من القوة ما يمكنه من توصيلها إلى الآخرين ؛ وإما أن أمانته لم تكن متكافئة مع ما لديه من ضغط لتوصيلها إلى الغير بالضبط .

وعلى أية حال لم يكن ليستطيع أن يثير فيك تلك الهزة التى نسميها سرورا ، والتى يرجع الفضل الأعظم فى وجودها إلى إحياء المشاركة فى العواطف العليا . فحينما جلس لام فى مقعد عزوبته المريح ، مع أخيه فى القبر وبجانبه تلك المخلصة المصابة بجنون عنيف ، زعم فى نفسه حقا :

« أن هذا جميل ، الحزن جميل ، والألم جميل . والحياة جميلة . يجب أن أخبرهم . يجب أن أجعلهم يفهمون » . فهو كلاسيكى لأنه ما زال يجعلك تفهم . والآن يخيل إلىّ أنى أسمعك تقول :

« لـكن ماذا لديك عن أسلوب لام الأدبى الشهير ؟ أين يأتى ذلك ؟ »

الفصل السادس

الأســـــلوب

كنا مرة نناقش قيمة كتب معينة فسمعت أناسا — أناسا كانوا يهابون التعبير عن آرائهم فى الأدب فى حضرة رجال الأدب — يقولون :

« قد يكون رديئا من وجهة النظر الأدبية ، لكن هناك أشياء جيدة فيه ». أو : « إنى أرى أن الأسلوب ردىء ولكن الكتاب حقا شائق ومثير للعواطف . » أو : « لست صاحب خبرة ، ولهذا لا أضايق رأسى بشأن الأسلوب الجيد ، وكل ما أبغيه هو الموضوع الجيد ، فإذا ما حصلت عليه ، فللنقاد أن يقولوا ما يشاءون عن الكتاب » . وملاحظات أخرى كثيرة مماثلة لتلك ، كلها ترينا أن عقول المتحدثين بها نشأت فيها فكرة مؤداها أن الأسلوب شىء ما ثانوى بالنسبة للموضوع ومتميز عنه ؛ نوع من التفكير معناه أن الكاتب الذى يريد أن يكون كلاسيكيا عليه أولا أن يجد موضوعه ويرتبه ، ثم بعد ذلك يلبسه حلة رشيقة تعرف بالأسلوب لكى يسر مخلوقات تسمى نقاد الأدب .

ذلك فهم سيىء ، فالأسلوب لا يمكن أن يميز عن الموضوع . لأن الكاتب حينما يدرك فكرة إنما يدركها فى صورة من الكلمات . وهـــذه الصورة من الكلمات تكون الأساس الجوهرى لأسلوبه ، وهو محكوم كلية بالفكرة ولا يمكن أن توجد الفكرة إلا فى كلمات ، كما لا يمكنها أن توجد إلا فى صورة واحدة من الكلمات ، ولا تستطيع أن تقول نفس الشىء تماما بطريقتين مختلفتين

فاذا ما حورت التعبير قليلا فإنك فى الوقت ذاته تحور الفكرة قليلا . ومن الجلى بالتأكيد أن التعبير لا يمكن أن يتغير دون أن يتغير الشىء المعبر عنه ! نعم إن الكاتب بعد أن يعبر عن فكرته يجوز ويحتمل أنه « يصقلها » لكن ما الذى « يصقله ؟ » إذا قلت أنه يصقل أسلوبه فذلك ليس إلا أن تقول إنه يصقل فكرته ، وأنه اكتشف خطأ أو نقصا فى فكرته ، فقام بإتقانها .

والفكرة توجد فى جزئيات كما يعبر عنها فى جزئيات ، ويتم وجودها حينما يتم التعبير عنها ، وليس قبل ذلك ، وهى تعبر عن نفسها . فالفكرة الواضحة يكون التعبير عنها واضحا ، والفكرة الغامضة يأتى التعبير عنها غامضا . ولن تحتاج فى هذا المقام إلا أن تأخذ حالتك الخاصة وحديثك الخاص ، وكما أن العلم ليس إلا التطور للادراك العادى ، كذلك الأدب ليس إلا التطور للكلام اليومى العادى . وما الفرق بين العلم والإدراك العادى إلا فرق فى الدرجة ، وبالمثل مع الأدب والكلام العادى . فحينما « تعرف ما تفكر فيه » تنجح فى قول ما تفكر فيه ، وفى جعل نفسك مفهوما . وحينما « لا تعرف ما تفكر فيه » ينعقد لسانك المعبر ويقف . وهنا نوجه نظرك إلى أن تلاحظ فى حياتك اليومية كيف أن خصائص أسلوبك تتبع حالتك ؛ ما أرقه حينما تكون أنت رقيقا . وما أعنفه حينما تكون أنت عنيفا . وربما تقول لنفسك فى لحظات عاطفية : « ليتنى أستطيع أن أعبر ... » الخ . ذلك خطأ منك ، لأنه كان ينبغى أن تقول : « ليتنى أستطيع أن أفكر — فى هذا الجو السامى » . فاذا ما فكرت بوضوح لن تجد أية صعوبة فى قول ما فكرت فيه ، ولو أنك فى بعض الأحيان قد تحس صعوبة فى حفظه لنفسك . وحينما لا تستطيع أن تعبر عن نفسك فاعز ذلك إلى أنه ليس لديك شىء محدد بالضبط لتعبر عنه ، وأن ذلك الذى يضايقك ليس الرغبة الباطلة فى التعبير لكنه الرغبة الباطلة فى التفكير بوضوح أكثر . كل هذا ليصور أن الأسلوب والموضوع متماثلان ، يخلقان معا ، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر .

× وليس من الممكن أن يكون هناك موضوع جيد مع أسـلوب ردىء . ولنفحص هذه النقطة فحصا دقيقا علها تتضح وضوحا تاما . هناك رجل يريد أن يوصل إليك فكرة جميلة ، فيستخدم لذلك صورة من الكلمات . وتلك الصورة من الكلمات هي الأسلوب . ثم تقرؤها أنت فتقول : « حقا . هذه فكرة جميلة » . وبهذا يكون الكاتب قد حقق أمنيته . لكن في أية ظروف خيالية تستطيع أن تقول : « حقا ، هذه فكرة جميلة ، لكن الأسلوب غير جميل » ؟ فالوسيلة الوحيدة للتوصيل بينك وبين المؤلف قد كانت الصورة الكلامية . وإذا كانت الفكرة قد وصلتك . فكيف ؟ في الكلمات ، عن طريق الكلمات . إذا كان كذلك فالجمال يجب أن يكون في الكلمات ×

ويحتمل أن تقول مفتخرا : « لقد عبر عن نفسه تعبيرا رديئا ، لكنى أستطيع أن أرى ماذا يقصـد . » بأى ضوء تستطيع ذلك ؟ إن كان بشىء ما في الكلمات ، في الأسلوب . فذلك الشىء جميل . وفوق ذلك ، إذا كان الأسلوب رديئا ، فهل أنت متأكد أنك تستطيع أن ترى ماذا يقصد ؟ الحقيقة أنه لا يمكنك أن تكون متأكدا تماما ، وعلى أية حال لا يمكنك أن ترى ذلك بدقة تامة . لأن « الموضوع » ، هو ذلك الذى يصلك حقيقة ، وهو لا بد أن يكون متأثرا حتما بالأسلوب .

وإلى الآن ما زال علينا أن نعرف ماذا يكون الأسلوب . ولمعالجة هذه النقطة لا أنطلب منك إلا أن تفكر في أسلوب الكاتب كما لو كنت تفكر تماما في حركات شخص تعرفه وأخلاقه . فقد تعرف رجلا سلوكه « دائما هادىء » لكن عواطفه قوية . وكيف تعرف أن عواطفه قوية ؟ لأنه « يفصح عنها » بنفسه عن طريق بعض جزئيات صغيرة من سلوكه ، لكنها مهمة ، كتحريك

الشفة حركة فيها شدة تستدعى الانتباه ، أو تبيض سلاميات الأصابع بسبب قبض اليد بعنف . وبعبارة أخرى ، ليس سلوكه من أساسه هادئا . وقد تعرف الرجل الذى هو دائما مؤدب وفيه رقة وانسجام ، لكنك لا تحس نحوه بارتياح . فلماذا يبعث فيك تأثيرا غير سار ؟ ذلك لأنه مصدر للضيق ، ولهذا فهو غيرمقبول ، ولأن رقته ليست رقة حقيقية . وتعرف الرجل الذى هو ثقيل وخجول وأحمق ، لكن مع هذا يثير فيك إحساس الكرامة والقوة . لماذا ؟ لأن الكرامة ممتزجة مع الثقل . وتعرف الزميل الكئيب الجلف ، فتخمن فيه بالفطرة أن يكون عاطفيا — لأن هناك « شيئا ما فى نغمته » أو « شيئا ما فى عينيه » . والحقيقة أن السلوك فى كل مثال يطابق الخلق تماما ، وإن تراءى فى بعض الأحيان أنه يضاده .

ولا يمكن مطلقا أن يخالف السلوك الخلق . وإذا كان هناك تضاد فليس إلا أن جزءا واحدا من الخلق هو الذى يضاد جزءا آخر من الخلق . لأنه ، بعد كل شىء ، ليس الرجل الكئيب إلا كئيبا ، وليس الرجل الثقيل إلا ثقيلا ، وهاتان الصفتان عيبان ، والسلوك هو الذى يعبر عنهما . وهذان الرجلان اللذان يتصفان بهما سوف يكونان أحسن لو أنهما بجانب محافظتهما على صفاتهما الطيبة ، كانا يتحليان بالسجايا الظاهرية من اللطف والانسجام والرقة التى فى الرجل المهـــذب الذى لا يسرك . والحقيقة بالنسبة لهذا الأخير هى أن الذى لا يسرك فيه ليس ما فيه من صفات ظاهرية ؛ إنما صفات أخرى فيه . وجملة القول فى النهاية أن الخلق يظهر فى السلوك ؛ والسلوك نتيجة للخلق وعائل الخلق . وهكذا الحال مع الأسلوب والموضوع .

وربما تعترض قائلا أن سلوك الرجل الكئيب الجلف لا يتناسب مع رقته . لكنى لا أظن ذلك ، لأن جلافته حقا تسبب التعب والألم ، حتى لزوجته ، ولو

أن لحظة الرقة سوف تحملها وتجعلك تنسيانها . فالرجل حقيقة جاف ، وهو جلفا أكثر منه لطيفا ، فسلوكه لا يكون إلا مطابقا خلقه تماما وهكذا الحال فى الأسلوب ، فإذا ضايقك كاتب فى عشر صفحات ثم خاب لبك فى عشرة سطور فلا تنفجر ضد أسلوبه ، ولا ينبغى أن تقول أن أسلوبه لا يسمح لموضوعه « بالظهور فى وضوح » . بل يجب أن تتذكر الرجـــل الجاف الرقيق ، وكلما أمعنت التأمل ازدادت رؤيتك وضوحا للحقيقة التى هى أن العيوب والمحاسن فى الأسلوب هى عيوب الموضوع نفسه ومحاسنه .

ومن الأمثلة الرائعة التى تصور هذه الحقيقة المهملة توماس كارلايل . فكم قيل أن موضوع كارلايل تشوهه خشونة أسلوبه وشذوذه ؟ لـكن موضوع كارلايل فيه من الخشونة والشذوذ ما يساوى تماما درجة الخشونة والشذوذ فى أسلوبه ، ولقد كان كارلايل نفسه خشنا وشاذا ، وكان سلوكه فى معظم الأحيان مثيرا للاستهزاء والسخرية إن لم يكن شنيعا . وأحكامه كانت غالبا غريبة . فحينما تقرأ إحدى قطعه النقدية العنيفة اللاذعة سوف تقول لنفسك : « هذا شىء جميل ، ان حماسة الرجل للعدل والحقيقة عظيمة » لـكنك أيضا تقول : « فيه قليل من مجانبة العدل والحق . فهو يشتط إلى حد بعيد ويلهب الظاهر بقسوة لا تحتمل » . وهذه الأشياء ليست الأسلوب ، بل أنها الموضوع . وحينما يكون عاطفيا ثم يكبح جماح نفسه فى الحال ، شأنه فى أعظم لحظاته ، قد تقول : « هـذا هو كارلايل الحقيق . » وهنا تلاحظ أن أسلوبه أصبح فى منتهى الجودة ! لا خشـونة ولا شذوذ الآن ! وإذا كان ذلك الموضوع المعين فى تلك الحالة هو كارلايل « الحقيقى » كان ذلك الأسلوب المعين حينئذ هو « الأسلوب الحقيقى » لـكارلايل . لـكنك تـكون أكثر صوابا لو استبدلت بكلمة « الحقيقى » كلمة « الأحسن » فتقول :

« هـــذا هو كارلايل الأحسن . » ولو أن كارلايل أنتج جميع أدبه وهو فى « أحسن أحواله » لعد ضمن عباقرة العالم الأفذاذ . لـكنه كان خليطا . فجاء أسلوبه تعبيرا عن خليط ، ووجدت العيوب فى الأسلوب لأنها موجودة فى الموضوع .

وسوف تجد فى الأدب الـكلاسيكى أن الأسلوب دائما يتبع حالة الموضوع . فهذه مثلا مقالة تشارلز لام فى « حلم الطفولة » تبدأ بسيطة جدا ، فى طريقة قصصية ، هادئة ، يبعث الحيوية فيها نوع معين التورية يناسب الأطفال ، ثم يصبح أسلوبها حزينا حينما تـكون الجدّة « فِيلد » هى الموضوع ، فإذا ماخطا المؤلف نحو شعور بهيج نوعا ما كالذى يثيره ذلك البيت القـــديم المزخرف جاء الأسلوب ، كما قد كان موضوعه ، جميلا يثير الوجدان ، ويزداد هذا الجمال ويعظم فى وصف الحديقة التى لا تزال أكثر جمالا . لـكن نقطة التحول الحقيقية فى المقالة تحدث حينما يصل لام إلى موضوع أخيه الأكبر . فيتحدث فى صدق ظاهر عن عاطفة حقيقية ، ويميز تلك النقطة بعبارة قوية ، فى نغمة أعلى نوعا ما ، ومن ثم يأخذ الأسلوب يزداد حماسة ورزانة ، إلى أن يصل إلى أوج المقالة حيث يقول : « وبينما كنت واقفا أشخص ببصرى ، أخذ كلا الطفلين يخفت فى عينى ، واستمر يتضاءل شيئا فشيئا إلى أن أصبحت فى النهاية لا أرى شيئا سوى شبحين فى أقصى الأفق ، يبعثان الأسى والشجن . وبدون أن يكون هناك كلام ، أثر ذلك المنظر فى نفسى ، بقوة وعنف ، تأثير الـكلام ... » فهكذا نجد الأســلوب دائما محكوما بالموضوع . قد تقول : « هذا حق ، لأنه شىء طبيعى ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك ؛ وإلا كان الأمر سخيفا . فالرجل الذى يتحدث عن الحب كما لو كان يلقى عظة ، أو الرجل الذى يلقى عظة كما لو كان يداعب صبيان المدرسة ، أو الرجل الذى يصف الموت كما لو كان يحكى نـكتة تثير الضحك لا يكون حتما

إلا حمارا أو مخبولا . » إنه لكذلك تماما ، وأنت بهذا قد وضعت الأمر فى أخصر تعبير وأحكمه . وعالجت مشكلة الأسلوب بأقصى ما يمكن أن تعالج به .

لكن ماذا يقصد أولئك القوم الذين يقولون : « إنى أقرأ المؤلف الفلانى لجمال أسلوبه فقط . » ؟ أنا شخصيا لا أعرف بوضوح ماذا يقصدون (ولم أستطع مطلقا أن أحصل منهم على توضيح لذلك) ، اللهم إلا إذا كانوا يعنون أنهم يقرءون لجمال الجرس فقط . وحينما تقرأ كتابا ليس هناك إلا ثلاثة أشياء يحتمل أن تنتبه لها :

١ — دلالة الكلمات التى هى مرتبطة كل الارتباط بالفكرة ولا يمكن فصلها عنها .

٢ — منظر الكلمات المطبوعة على الصفحة — ولست افترض مطلقا أن هناك أى شخص يقرأ أى مؤلف لجمال منظر الكلمات المطبوعة على الصفحة .

٣ — جرس الكلمات ، سواء نطقت حقيقة ، أو تخيلها المخ منطوقة . ومما لاريب فيه هنا أن الكلمات تختلف فى جمال الجرس . وإن من أعظم الكلمات جمالا فى اللغة الانجليزية فى نظرى كلمة « Pavement : إفريز » فانطق بها ، وادرس جرسها ، ثم أنظر ماذا ترى . ولا ريب كذلك أن تراكيب معينة من الكلمات فيها جمال فى الجرس أكثر من تراكيب معينة أخرى . ومن هنا كان تينسون يعتقد أن أجمل بيت كتبه هو :

"The mellow ouzel fluting in the elm"

« والشحرور ذو الصوت الرخيم يبعث ألحان الناى فى أغصان الدرداء » .

وربما كان كذلك كما يظهر من جرسه . ففيه بالتأكيد تتابع جميل للأصوات كما أنه يحكى أصوات الطائر التى قصد أن يصفها . لكن هل يبقى

حيا فى الذاكرة كأحد أبيات تينسون العظيمة النادرة ؟ كلا . حقا فيه سحر ، لكنه ليس إلا سحرا غريبا أو جذابا فى الظاهر . والقصيدة كلها تتكون من أبيات ليس من بينها ما يوصى به خيرا من هذا البيت الذى سوف يظل مجرد غريب أو جذاب . وإن يثير الاهتمام على الدوام . وسيكون تافها لاطعم له كامرأة جذابة المظهر ليس فيها شىء وراء جاذبيتها الظاهرية . ولهذا لن يبقى حيا . وربما كان للانسان بهذه المناسبة أن يلاحظ كيف أن محسنات تينسون اللفظيه فقدت احترامنا . فمن منا سوف ينادى الآن بأن « أناشيد الملك » قطعه فنية رائعة ؟ ومن بين آلاف الأبيات التى كتبها واهتم فيها بالجمال اللفظى ليسر الأذن لم يخلد إلا تلك التى تهتم بالعاطفة . لا ! إنى بالنسبة للرجل الذى يعترف بأنه يقرأ المؤلف « لأسلوبه فقط » أميل إلى الاعتقاد بأنه إما أن صدره سوف يضيق بالمؤلف سريعا ، وإما أنه يخدع نفسه ويقصد مزاج المؤلف العام — لا أسلوب المؤلف اللفظى ، بل خاصية عجيبة تسرى خلال الموضوع الذى كتبه المؤلف . فذلك تماما كما يحب الشخص إنسانا لشىء ما يشم دائما منه ، ولا يستطيع الشخص أن يعرفه ، وهو فى الحقيقة من روح ذلك الإنسان .

وفى الحكم على أسلوب مؤلف ، يجب أن تستخدم نفس القوانين التى تستخدمها فى الحكم على الرجال . وإذا فعلت هذا فلن يغريك شىء أن تربط المهم بالحقير الذى يستحق الاهمال . وكما أنه لا يمكن أن يكون هناك صداقة دائمة بدون احترام ، فكذلك الحال هنا إذا وجدت أسلوب مؤلف لا يمكن أن تحترمه ، فلك حينئذ أن تجزم أنه بالرغم من اللذة الوقتية التى يحتمل أن تحصل عليها من ذلك المؤلف ، لا بد أن يكون هناك شىء ما خطأ فى الموضوع ، وأن تلك اللذة سوف تضايقك لما تحسه فيها من تخمة وإفراط .

فالواجب أن تختبر مشاعرك نحو المؤلف . فإذا كنت ، بعد قراءة مؤلف

تشعر بالسرور دون أن تعى منه شيئا سوى حلاوة ألفاظه ، فما عليك إلا أن تدرك ماذا يكون شعورك بعد قضاء شهر فى إجازة مع رجل ليس فيه إلا أنه حلو الحديث . وإذا سرك أسلوب مؤلف ، ولكنك تحس أنه لم يفعل شيئا سوى أنه جعلك تضحك إلى درجة القهقهة ، فتأمل حينئذ مقدار العناء النهائى الذى يسببه رجل لا يستطيع أن يفعل شيئا غير الهزل . وبعبارة أخرى ، إذا تأثرت بما قاله لك مؤلف ، لكنك عالم بخرقه اللفظى فى إنتاجه ، فلست فى حاجة إلى القلق على « أسلوبه الردىء » إلا بالقدر الذى يساوى تماما فى القلة والكثرة قلقك على أخلاق صديق طيب القلب ، حاد الذكاء ، ولكنه فى الوقت ذاته خطر على السجاجيد حينما يمسك فى يده فنجانا من الشاى . فحالة الصديق الغريبة فى حجرة الاستقبال شىء يؤسف له بعض الأسف لكنك لن تقول عنه إن أخلاقه سيئة . وشىء آخر إذا أذهلك أسلوب مؤلف لأول وهلة ، أو أعماك عن كل شىء سوى تألق نفسه ، فاسأل نفسك ، قبل أن تبدأ الاعجاب بموضوعه ماذا يكون رأيك الأخير فى رجل تلقاه لأول مرة فإذا به يقذف عليك قنابل عن نفسه كما تطلق القذائف كلها من جانب واحد من جوانب بارجة . فليكن ثابتا فى نفسك ، كقانون ، أن الذين لا تجد مفرا من احترامهم إنما يوثقون صلتهم بك تدريجيا وعلى درجات ، ولا يبدءون التسلية بإطلاق الصواريخ . وقصارى القول أنه يجب أن تنظر إلى الأدب كما ينبغى أن تنظر إلى الحياة ، وبذلك لن تخفق فى إدراك أن الأسلوب ، بالضرورة ، هو الرجل . وبكل تأكيد ، لن تزعم مطلقا أنك لا تعبأ بالأسلوب وأن تمتعك بموضوع مؤلف ليس متأثرا بأسلوبه ، ولن تزعم مطلقا كذلك ان الأسلوب وحده يكفيك .

وإذا ترددت حول أسلوب ، ولم تستطع أن تقرر هل يميل إلى النوع المحبوب

أو غير المحبوب ، فخير الأمور حكمة ، فى تلك الحالة ، أن تتناسى أن هناك شيئا موجودا يسمى الأسلوب الأدبى . لأنه ، فى الحقيقة — بحسب مفهوم الأسلوب عند معظم القوم الذين لم يحللوا مشاعرهم تحت تأثير الأدب — ليس هناك شىء يسمى الأسلوب الأدبى . ولا تستطيع أن تقسم الأدب جزأين فتقول : هذا موضوع وذاك أسلوب . ثم إن أهمية الأدب وقيمته يجب أن يدركا وأن يقدرا بنفس الطريقة التى تدرك وتقدر بها أية ظاهرة أخرى : وذلك باستخدام حاسة الإدراك العام عمليا . فالإدراك العام سوف يخبرك أنه لا يمكن أى إنسان ، حتى العبقرى ، أن يكون فى وقت واحد مبتذلا وممتازا ، أو جميلا وقبيحا ، أو دقيقا وغامضا ، أو رقيقا وخشنا . ولهذا سوف ينبئك الإدراك العام أن المحاولة لوضع متناقضات جوهرية بين الموضوع والأسلوب عبث .

وحينما يكون هناك تناقض ظاهرى ، فإن إحدى الصفتين المتناقضتين تكون أقل بكثير جدا فى الأهمية من الأخرى . وإذا أرجعت الأدب إلى قوانين الحياة ، فسوف يقرر لك الإدراك العام فى الحال أى الصفات ينبغى أن تكون أرجح وزنا فى احترامك ، وسوف تكون فى مأمن من الوقوع فى خطر بأن تزن مجرد الحق فى السلوك مقابل ميزة جميلة فى الخلق ، أو بأن تدع سلوكا حسنا يعميك عن عيب جوهرى . فحينما تكون فى شك ، تجاهل الأسلوب ، وفكر فى الأسلوب كما لو كنت تفكر فى إنسان .

الفصل السابع

صراع مع مؤلف

أما وقد انتهينا من عرض مسألة الاسلوب المسيرة بقدر ما هو ممكن وضرورى ، فلنعد الآن إلى تشارلز لام ، الذى كانت مقالته فى « حلم الأطفال » السبب الأصلى فى بحثنا فى الأسلوب . وبما أننا قد بدأنا بلام ،فيحسن أن ننتهى به . هذا إلى أنه فى الخطوات التمهيدية للثقافة الأدبية ، ليس هناك شىء يساعد على إشعال الاهتمام ، وحفظه ملتهبـــا ، أكثر من أن تتخصص ، لوقت ما ، فى مؤلف واحد ، وعلى الخصوص فى مؤلف يكون « إنسانيا » فى صراحة وشغف عظيمين ، كما كان لام . ولست أعنى بذلك أنه ينبغى أن تحبس نفسك مع إنتاج لام كله وحده ، لمدة ثلاثة شهور ، ولا تقرأ شيئا آخر غيره . إنمـــا أقصد ، أنه ينبغى أن تخصص بانتظام جزءا من وقت فراغك الذى تستغله فى الثقافة لدراسة لام ، إلى أن تتعرف على كل ما هو مهم فى إنتاجه وما حول إنتاجه .

وليس هناك سبب يمنع من أن تصبح متخصصا متواضعا فى لام . فهو الرجل الذى يصلح حقيقة لك ، لأنه ليس ضخم الإنتاج ،ولا صعبا،ولا متعاليا يبعث التعب ؛ بل دائما ، إما مسل ، وإما مثير للشعور : ولأنه — وذلك أهم ما فيه — قد وهب نفسه ، عن احساس عميق ، للأدب . ولا يمكنك أن تحب لام دون أن تحب الأدب على العموم . كما أنه لا يمكنك أن تقرأ لام دون أن تعرف الأدب على العموم ؛ لأن الكتب

كانت هوايته ، وكان هو ناقدا من الطراز الأول • ورسائله مفعمة بالروح الأدبية الحقيقية • واعتقد أنك سوف تقرأ بطبيعة الحال هذه الرسائل ، لـكن لا ينبغى أن تتلهى بها فقط إلى مالا نهاية (ولو أنه ليس هناك رسائل أحسن منها) ، بل يجب أن نأخذ منها نبراسا يضىء لك جوانب أنواع الإنتاج الأدبى .

ذلك شوط من الدراسة أقترحه لك ، وهو يعنى مقدارا معينا من مجهود قوى ، يعنى عزيمة أكثر ، واصرارا أكثر ، وبذلا من أنسجة المخ أكثر قليلا مما تتطلبه قراءة الصحف . إنه يعنى فى الحقيقة « العمل » . وربما لم تكن قد ظننت أنى سأطالبك بالعمل حين اتصلت بى ، ولـكنى لا أعتقد أن الذوق الأدبى يمكن أن يتكون تماما ، ما لم يكن المرء مستعدا لحمل العبء على كاهله • وقد يكون مما يشجعك على العمل أن أخبرك أنى أتنبأ أنه ، بالإضافة إلى ماستحصل عليه من مميزات عديدة تتلخص فى ألفة للقطع الأدبية الرائعة ، وازدياد من المعرفة الأدبية ، وتمهيد واسع للدخول فى جو الـكتاب حقيقة ، و « شعور » بالأشياء سوف تستفيده من الدراسة الشاملة لتشارلز لام ، سوف تحس أيضا بميزة معنوية — وهى ميزة مهمة جدا ، وملهمة إلى درجة عظيمة ، هى ثقتك من أنك حقا « تعرف شيئا ما عن شىء ما » . وبهذا تـكون قد خطوت خطوة حقيقية ، وتشعر أنك بكل فخر قد وضعت نفسك فى مركز تستطيع به أن تحكم ، كإنسان ذى خبرة ، على أى شىء تقرؤه أو تسمعه فى المستقبل مما يتصل بلام . وهذا الفخر المشروع • وذاك الإحساس بالـكمال . سوف يحثانك على المضى فى الدراسة الأدبية أكثر وأكثر ؛ وسوف يولدان فيك قوة كقوة البخار ، وفى نظرى أن هذه الميزة المعنوية غير المباشرة ترجح ، فى تلك اللحظة ، كل الميزات الأدبية المباشرة .

والآن ، لن أغمض عينى من نتيجة يمكن أن تحدث من اتصالك الدائب

بتشارلز لام . فمن الممكن أنك قد لا ترتاح معه . وأغلب الظن عندى أنك على أية حال قد لا ترتاح معه ، ولو جزئيا ! وتشعر أنك كنت تتوقع منه سرورا أكثر مما قد حصلت عليه . تلك حقيقة ممكنة . وقد أشرت فى فصل سابق إلى شعور عدم الارتياح الذى يأتى غالبا من أول اتصال بالكلاسيكيات . وإن الشخص الحديث العهد بها عرضة لأن يجدها كئيبة — وإن كنت لا أحب أن أقول هنا هذه الكلمة . فربما تحس أنك قد وجدت لام أقل جاذبية ، وأقل إثارة للاهتمام مما قد أملت فيه ، بعد أن تكون قد تحملت العناء الكثير مرارا وتكرارا فى بذل مجهود عنيف لقراءته . وبالاختصار ، تشعر أن لام ، فى نظرك لم يثبت إنه جدير بالشهرة الهائلة التى يتمتع بها . ومن الثابت أن الكلاسيكى إنما سمى كلاسيكيا لأنه يمنح السرور أجيالا متعاقبة لقوم يهيمون شغفا بالأدب لدرجة عظيمة . ومن ثم إذا كان لام مع أنه كلاسيكى غالبا ما يثير فيك الشعور بأنه كئيب ، فلابد حينئذ من أن يكون هناك شىء ما خطأ . هذه نقطة فيها صعوبة والصعوبة يجب أن نواجه برمتها ، ومواجهتها هنا تنقلنا إلا لب القضية التى نحن بصددها ، وهى مهمة تكوين الذوق حقيقة . فلو أن ذوقك كان كلاسيكيا لوجدت فى لام سحرا مستمرا ؛ ورأيت بالتأكيد أن ما تجده حقيقة فى لام ، ليس تفاهة خالية من المتعة ، يبعث الحياة فيها فكاهة غامضة أو شىء يحرك العواطف عرضا .

فمن الناحية النظرية يجب . أن تكون مهتما بالأدب إلى حد الهيام به . لكن يظهر أنك لا تستطيع الشعور بالعاطفة ، أو — على أحسن تعبير : لك نصف قلب . وهناك خليج يعترض طريقك ، فكيف تعبره ؟

إن عبوره يحتاج إلى وقت ، ويحتاج إلى مشقة . ولكن الاعتباران التاليان

قد يساعدان على ذلك . ففى المكان الأول يجب أن نتذكر أنه حينما نجتمع بالكلاسيكيين على العموم ، وبشارلز لام على الخصوص ، إنما نجتمع بشخص ممتاز العقلية . وماذا يحدث عادة فى مثل تلك الحالة ؟ نستطيع أن نقرر ذلك إذا استحضرنا ما يحدث حينما نجتمع بشخص ناقص العقلية . لاشك أننا حينئذ نقول عن الأشياء التى يتركها إنها مهمة ، ونمزح نحن وهو لا يبتسم ؛ وما يجعله يضحك غالبا يتراءى لنا جلبة فارغة أو شيئا صبيانيا ؛ وهو أعمى عن أنواع الجمال التى تفتننا ، وبغتته هو ما نحسه نحن من أول وهلة ممجوجا . وحقائقه النابعة عن القلب بالنسبة لنا تافهة مبتذلة . وإذا كانت نسبيا جافة ، وإذا كاننا نسبيا ذات دهاء . فنحاول أن نجعله يفهم ، وأن نجعله يرى ، فإذا ما عرف نقصه توقعنا بعض النجاح . لكن إذا لم يدرك نقصه ، فسرعان ما نمسك ألسنتنا ونتركه وحده فى رضاه عن نفسه ، واثقين من أنه ليس هناك شىء يمكن عمله معه . ولا شك أن كل واحد منا قد مر بهذه التجربة مع شخص ناقص العقلية ، لأنه دائما هناك فى متناول اليد من يكون ناقصا فى العقلية ، كما أن هناك دائما من هو أكثر شقاء منا . لذلك كان من الحكمة حقا ، حينما نقترب من الكلاسيكى ، أن نضع أنفسنا فى موضع الناقص العقلية ، الذى يعرف نقصه العقلى ، وقد جرد نفسه فى خضوع تام من كل إدراك ، ويتلهف على التخلص من هذا النقص . كما يجب ألا يغيب عن البال أنه دائما لا أمل لنا مطلقا فى الشخص الناقص العقلية الذى لا يتهم نقصه العقلى . وعلى هذا يجب أن يكون شعورنا نحو لام هكذا : « لام كان رجلا أعظم منى ، وأكثر مهارة ، وأحدّ ذكاء ، وأكبر دهاء ، وأشد لطفا ، وأقوى فطنة ، مع عينين أدق نظرا للجمال ، لهذا يجب أن أوطد نفسى لأتبع قيادته . » ويجب أن تكون حالتنا حينئذ مماثلة تماما لحالة ذلك الشخص الذى يرهف أذنه ويصغى بكل روحه لصوت بعيد .

ولكى ندرك الصوت يجب حقا أن نصغى . وهذا معناه أنه يجب أن نقرأ بعناية ، بجذبين لذلك كل حواسنا فتكون فى يقظة تامة على الدوام ، ويجب أن تكون القراءة فى بطء ومثابرة . فالكلاسيكى يجب أن يخطب وده ، وهو أهل لأن يخطب وده . وفوق هذا ، يجب ألا نأنف من أية مساعدة . لكنى لا أحبذ دراسة نقد الكلاسيكيات ، قبل دراسة الكلاسيكيات نفسها ، وإنما أرى أن ندرس انتاج الكاتب الكلاسيكى وسيرته معا ، ثم نقرأ النقد بعد ذلك . ولهذا أعتقد أنه عند إعادة طبع الكلاسيكيات ينبغى أن توضع « المقدمات النقدية المعتادة » فى آخر الكتاب لا فى أوله . لأن الكلاسيكى يجب أن يسمح له بأن يؤثر تأثيره الخاص ، مهما كان ضئيلا ، فى العقل البكر للقارىء ، ثم بعد ذلك دع النقد التوضيحى يقرأ كما تحب . وليكن معلوما أن النقد التوضيحى مفيدا جدا ؛ وهو تقريبا مفيد كما ينعم الشخص نظره فيما قد قرأه ! وقد يلقى النقد التوضيحى شعاعا واحدا يضىء الموضوع كله .

والاعتبار الثانى (الذى أراه يساعد على عبور الخليج) يمس حال السرور الذى نحصل عليه من الكلاسيكى . إنه لا يكون سرورا عنيفا أبدا ، وهو نابع من ذكاء ومهارة ، وتزداد قوته بالتدريج ، لكن فكرة العنف ليست فى شىء منه بل غريبة عنه . أما أنواع السرور المصطنع الذى ينبع من عقل غير مثقف فتكون على العموم عنيفة ، وهى تأتى من المبالغة فى معالجة الموضوع ، ومن فقدان التوازن ، ومن جعل أهمية عظيمة لجانب واحد (عادة يكون سطحيا) فى حين أن غيره يتجاهل تماما وهى أنواع ثقيلة تعافها النفس كاللقمة التى نحسها فى الحلق من طعام كثير الدسم . والآن إذا كان هناك نقطة واحدة مشتركة بين كل الكلاسيكيات فهى عدم المبالغة .

وذلك لأن التوازن الفكرى الذى فى العقل العظيم يجعل المبالغة وما ينتج عنها كالتشويه والإفساد من المستحيل . فجمال الكلاسيكى ليس من شأنه مطلقا أن يصرعك ، بل إنه بالأحرى يسرى فيك شيئا فشيئا حتى يملأ جوانحك . وإنى لواثق من أن كثيرا من الطلبة الجادين تثبط هممهم فى المراحل الأولى لأنهم يتوقعون نوعا خاطئا من السرور . لقد ابتعدوا عن الطعام الكثير الدسم فأهملوه ، وفقدوا النكهة القوية التى تعافها النفس ، والواجب على هؤلاء أن يعرفوا أن الانهماك فى النكهة القوية معناه الفقدان التام المؤكد للحساسية حتى للنكهة القوية نفسها . ولا يمكن هؤلاء أن يحصلوا على الغلظة والرقة معا . فعليهم أن يختاروا ، متذكرين أنه بينما الغلظة تقتل السرور فإن الرقة دائما تزيده .

الفصل الثامن

النظام فى القراءة

لقد بدأت الآن بالتأكيد رحلة فى بحر الأدب ، فأنت على سطح البحر ، ومرساتك مرفوعة ، وأظن أنى قد أعطيت تحذيراً كافيا من الأخطار والمنغصات التى تنتظر المهمل والمتهور . والمهمة التى تقوم بها ليست هينة ولا قصيرة ، وفى اعتقادى أنى قد أنذرت بما فيه الكفاية مبينا أنه سوف تنتابك ساعات من الكرب قد تشعر خلالها بالميل إلى أن تسوق جميع الكُتّاب ، ومعهم مخترعو الطباعة إلى الموت الأبدى .

لكن إذا صرت حقيقة صديقا للام ، إذا عرفت لام ، أو حتى نصف لام ، إذا كونت صورة له فى عقلك ، وتستطيع بها أن تسمعه ، كما قد كان يتحدث فى طلارة ، حينما تقرأ مقالاته أو رسائله ، فحينئذ تكون حالتك بالتأكيد ملائمة لأن تخطو أبعد من هذا ، ولست فى حاجة إلا لأن تعرف فى أى اتجاه ينبغى أن تتقدم . وكأنى أسمعك تهمس إلى نفسك فى وجل واحتجاج قائلا : « أضرع إلى الله ألا يكون على وشك أن ينصح بقسط من الأدب الانجليزى لأنى أشعر أننى لن أستطيع القيام به مطلقا » . لا . لست كذلك . وكل ما هنالك هو أنك إذا كان هدفك فى الحياة أن تصبح عاضرا فى الجامعة فى الأدب الانجليزى كان ينبغى حينئذ أن أصف شيئا عنيفا وصعبا .

لكن مادام هدفك ، الذى أهتم الآن بتحقيقه ، هو مجرد الحصول على أسمى وأقوى صورة للسرور الفنى بقدر استطاعتك ، فلن أصف أى قسط مقنن ، بل سوف تكون لدىّ الجرأة على أن أثنيك عن أى شوط دراسى مقنن . فليس هناك رجل ، وبالتأكيد ليس هناك مبتدىء ، يمكن أن يكون فى استطاعته متابعة شوط تاريخى للأدب دون تضييع وقت طويل مضن فى الحصول على مجرد معرفة سوف لا يترتب عليها سرور ولا ميزة . وفى الاختيار للقراءة يجب على الشخص أن يدخل فى حسابه الهوى والميل ، لأن الميل غالبا ما يكون أعظم أساس حقيقى فى توجيه الشخصية . فقف ثابتا على قدميك أنت ، ولا تعتذر لنفسك عن نفسك ، واعلم أنك لم تخلق لكى تُشرّف الأدب بأن تصير دائرة معارف للأدب . بل إن الأدب لم يخلق إلا لخدمتك . ومركز الأدب ، بالنسبة لك ، هو انت ، حيثما وجدت ، وأينما تكون .

لكن لا يزال عليك ، من أجل مصلحتك الخاصة ، أن تقصر نفسك ، لوقت طويل ، على الكلاسيكى المشهور للأسباب التى وضحتها من قبل . ومع أنه لا ينبغى أن تتبع شوطا معينا ، فإنه يجب أن يكون لك نظام أو قاعدة . وسوف ينبئك ما فيك من ذكاء أصلى أن الميل إذا ترك له العنان كلية ، فإن مغبته تكون سيئة تماما . والنظام الذى أوصى به ينحصر فى هذه النصيحة : دع الشىء الواحد يقودك إلى شىء آخر . وفى بحر الأدب ، كل جزء يتصل بكل جزء آخر ، وليس هناك بحيرات مقفلة .

ولقد كانت عينى مفتوحة على هذا النظام حينما أوصيتك أن تبدأ بلام . فلام ، حينما تصبح من معارفه المقربين ، يكون قد عقد أواصر صلات وثيقة بينك وبين عدد من الكتاب البارزين تستطيع أنت بذلك أن تكون لهم صديقا حميا ، وسوف

يكونون مصدر فائدة لك على الخصوص . ومن بين هؤلاء وردزورث ، وكولردج ، وسوثى ، وهازلت ، ولى هانت . لأنه لا يمكن أن تعرف لام دون أن تعرف هؤلاء الرجال ، وبعضهم ذو أهمية عظمى . ومن دائرة إنتاج لام الأدبى يمكنك أن تذهب من أية نقطة فى محيطها إلى اتجاهات مختلفة تبعا لميلك الخاص . فاذا كنت مثلا تميل إلى الشعر ، فإنك لن تستطيع أن تجد فى الأدب الانجليزى ، بدءا خيرا من البدء بوردزورث . ووردزورث سوف يرجعك إلى الوراء لتعرف شيئا عن الشعراء الذين نازلهم ، فحارب ضد تأثيرهم . وحينما تفهم « القصص الغنائية » لوردزورث وكولردج ، ودفاع ورد زورث عنها ، سوف تكون فى مركز يسمح لك أن تحكم فى الشعر على وجه العموم . وإذا تاق عقلك ، من ناحية أخرى ، إلى أدب مبكر ، وأكثر رومانتيكية ، فإن ما كتبه لام من « نماذج للشعراء الدراميين ، المعاصرين لشيكسبير » يكون قد أخذ بيدك من قبل ، فى طريقة ساحرة جذابة ، إلى خليج واسع من « البحر الذى هو شيكسبير » .

وشىء آخر ، سوف تكتشف فى هازلت ولى هانت ، أنهما من كتاب المقالات ، وهما وإن كانا يقلان عن لام فى هذه الناحية ، فانهما فى النقد بما لا يقلان عنه . فهازلت لم يتفوق عليه إنسان كناقد . أحكامه مقنعة ولا مجال فيها للطعن ، وحماسته ذات طبيعة تأخذ بالألباب . وعندما تصل إلى هازلت أو لى هانت تستطيع أن تتفرع مرة أخرى من أية نقطة من عشرات الآلاف من النقط إلى دوائر أخرى أوسع . وهكذا قد تستمر صعودا وهبوطا خلال القرون كما تشاء على حسب المدى الذى تحب ، حتى إلى تشوسر .

وإذا سنحت لك فرصة لقراءة ما كتبه هازلت عن « تشوسر وسبنسر » فأغلب الظن أنك سوف ترتدى قبعتك فى الحال وتخرج فتشترى هذين المؤلفين ؟

التى هى ناره وصلت إليـــك فألهبتك؟! وإنى أعتقد أنى لست فى حاجة إلى أن أذكر أى شىء بوجه خاص أكثر من هذا. فبالبدء بلام، مع السماح للشىء الواحد أن يقودك إلى آخر، لن تعجز عن الإحساس أكثر وأكثر بما تشعر به من الملاءمة العجيبة بين ما تحتاج إليه أنت وما تجده فى كل من يتصلون بلام وعصر لام. لأن لام عاش فى زمن بعث فيه الأدب الانجليزى بعثا عاليا، فكان وردزورث وكولردج يعيدان خلق الشعر؛ وكان سكوت يعيد خلق الرواية؛ وكان لام يعيد خلق تصوير الطبيعة الإنسانية؛ وكانت هازلت، وكولردج، ولى هانت وآخرون يعيدون خلق النقد. فالشرر يتطاير فى كل الأرجاء.

ولهذا لن يكون الأمر أقل من معجزة إذا كان فيك شىء سريع الالتهاب وغير قابل للفناء ثم لا يشتعل نارا.

بقى عندى كلمة واحدة أتحدث بها إليك لغرض التحذير. ربما تقول لنفسك: «ما دمت ملازما للكلاسيكيات لا يمكن أن أنحو اتجاها خطأ».

نعم يمكن أن تقع فى ذلك. ففى الوقت الذى لا تقرأ فيه إلا مادة قيمة جدا يمكن أن تقترف خطأ محزنا وذلك بقراءتك أكثر مما ينبغى لنوع واحد. والآن هناك نوعان، نوعان اثنان فقط.

وهذا النوعان ليسا النثر والشعر، وليسا منفصلين أحدهما عن الآخر بأى اختلاف فى الصورة أو الموضوع. هـــذان النوعان هما النوع الإيحائى والنوع الإخبارى. ولا يوجد فى الأدب تقسيم حقيقى آخر غير هذا التقسيم. وكان دى كونسى أول من قرر ذلك بوضوح. وكان اصطلاحاه: أدب «القوة» وأدب

« المعرفة » . وهذان النوعان يوجدان متلازمين تقريبا فى كل أدب عظيم ، لـكن عادة تـكون السيطرة لأحـــدهما على الآخر . ومثال النوع الايحائى الخالص Kubla Khan لـكولردج ، ولـكنى لا أستطيع أن أذكر أى مثال من الدرجة الأولى للنوع الإخبارى الخالص ، وأقرب شىء يتصل به أستطيع أن أذكره هو « المبادىء الأولى » لسبنسر ، ففيها على أية حال من الأدب ما يوحى بدرجة عالية أما المثال الذى يسيطر فيه الجانب الايحائى فهو Ivanhoe ؛ والمثال الذى يسيطر فيه الجانب الاخبارى هو مقالات هازلت عن شخصيات شيكسبير . والواجب عليك أن تتجنب إعطاء تفضيل غير لازم للنوع الذى تسيطر فيه الناحية الايحائية أو للنوع الذى تسيطر فيه الناحية الاخبارية ، وإن الاكثار عما ينبغى من النوع الأول متعب ومنهك ، والاكثار من الآخر عما ينبغى يسبب الجفاف . فإذا قصرت نفسك قصرا تاما على أولهما فقد تصبح مجرد هائم بالعاطفة ، وإذا قصرت نفسك قصرا تاما على ثانيهما فقد تعدم الاحساس . ولست أعنى بهـا أنه ينبغى أن تمسك الميزان بالقسطاس المستقيم بين النوعين ، فذوقك هو الذى سيتولى أمر الوزن ، إنما الذى أعنيه هو أنه لا ينبغى أن يهمل أى واحد من النوعين .

إن لام مثال الـكاتب العظيم الذى يستطيع أى إنسان أن يفهمه ، وتعرف قدره الغالبية العظمى من أولئك الذين يعشقون الأدب ويهتمون به ، فهو لا يتطلب اسرافا فى المجهود من مقدرة الذكاء ، ولا من قوة المشاركة العاطفية . ومهما يكن من شىء ، فإن الآداب بالنسبة لناحيتى لام تظهر هناك أكثر صعوبة ، وأكثر غموضا . ولن يحتاج جانب « المعرفة » إلى أن يعوقنا هنا ، فمن الممكن إجادته بالتركيز والمثابرة ، لـكن جانب « القوة » الذى يتضمن انتاج العبقرية السامى

يتطلب اهتماما خاصا . وقد تصل إلى الدرجة التى تستمتع فيها بلام ، ولكنك لا تستطيع مطلقا أن « ترى أى شيء » فى انتاج مثل Kubla Khan أو Comus لملتن ؛ وفى رواية مثل « هاملت » قد لا ترى فيها شيئا سوى قصـــة دموية « مملوءة بالاقتباسات » لكن بالرغم من ذلك ، كل ما ذكر انتاج رفيع ، قادر على انتاج سرور رفيع ، وسوف ينتج سرورا رفيعا حينما يحصل الانسان على المفتاح الذى يخوله حق الدخول إليها . ومفتاح الدخول هذا ، هو فهم طبيعة الشعر .

الفصل التاسع

الشـــعر

هناك كلمة هى « اسم لخوف » يثير الرعب فى القلب لدى الأغلبية الساحقة من الناطقين بالإنجليزية ، وإن أعظم شجاع ليطير هلعا عند مجرد النطق بتلك الـكلمة ، حتى أوسع الناس عقولا تضيق صدورهم بها، ولا يجرؤ على مواجهتها أكثر الناس تهورا واندفاعا . ولقد رأيتها بنفسى تقفر بيوتا كانت عامرة بساكنيها ، وإنى لأعرف أنها تفعل فى تشتيت الجماهير أكثر وأسرع مما تفعله صيحة النفير ، أو هياج الزنابير ، أو إشاعة الطاعون . وحتى التمتمة بها تسبب وحشة ، وربما امتعاضا ، وقد يكون هلاكا ، كما تعرضه الأمثلة التاريخية . تلك الـكلمة هى « الشعر » .

وإن المعارضة العميقة فى قلب الرجل العادى للشعر تندر المبالغة فيها . وحينما أقول « الرجل العادى » لا أقصد « الرجل العادى الشعور » — أى رجل من أولئك الذين يمكنهم ركوب السيارات العامة ؛ إنما أقصد « الرجل العادى المتعلم» ، الرجل العادى الذى يهتم ولو قليلا بالـكتب، ويستمتع بالقراءة، ويعرف الـكلاسيكيات بالاسم، والـكتاب المشهورين بقراءاته لهم . وإنى لواثق من أنه ليس هناك رجل واحد من عشرة يقرأ ، يقرأ الشعر — على أية حال ، عن معرفة . وإنى لواثق، أبعد من هذا ، من أنه ليس هناك رجل واحد من عشرة ، يصل عن معرفة ،

إلى درجة أن « يشترى » الشعر ثم يقرؤه . وسوف تجد فى كل مكان رجالا يقرءون قراءة واسعة جدا فى النثر ، لكن هم الذين سوف يقول الواحد منهم بطريقة لا إحساس فيها : « لا ، لم أقرأ شعراً قط . » وإذا كان للشعر الحديث ـ وقد وضعت عليه بطاقة تحمل اسمه بوضوح ـ أن تقف سوقه تماما من الغد ، فلن يفلس ناشر ، ويندر جدا أن يتأثر ناشر بذلك .

ولكن مع ذلك ، لن يموت شاعر ـ لأنى لا أعتقد أن هناك شاعرا حديثا واحدا يعيش اليوم على ما يدره عليه شعره . وإن هذه الحالة لتعتبر على الأقل شاذة بالنسبة للبلد الذى يملك أعظم أدب شعرى فى العالم . والذى يجعلها أكثر شذوذا أنه يندر ، ويندر جدا ، أن يوجد لدى الرجل المتعلم العادى شغف شديد بشاعر عظيم يجعله يشترى كتبه فى عشرات الألوف ، فيمنحه ثراء واسعا كما حدث مع تنسون . ولا يزال يجعلها أكثر شذوذا بعد كل هذا أن الرجل العادى المتعلم لا يكره الشعر حقيقة . إنما هو يكرهه حينما يكون فى صورة معينة . وسوف يقرأ الشعر ويستمتع به ، بشرط ألا يعلم أنه شعر .

وإن الشعر ليمكن حقا أن يوجد فى النثر وفى النظم . فأعطه الشعر مختفيا فى النثر ، وحينئذ ، إن لم يأخذ حذره ، سوف تكون هناك فرصة لأن يقدره حق قدره . لكن أره صحيفة من الشعر تجد أنه سوف يهم باستدعاء رجال الشرطة . والسبب فى هذا ، أنه ، مع أن الشعر قد يجىء فى النثر أو فى النظم ، فإنه فى الحقيقة غالبا يحدث فى النظم بدرجة أعظم جدا من النثر ؛ والشعر العظيم كله تقريبا منظوم ؛ ولا تتحقق شخصية النظم إلا بالشعر العظيم ، والشعر العظيم لا يفهمه ولا يتذوقه إلا القوم الذين وضعوا أنفسهم فى وسط نظام عقلى جسيم ، هو للآخرين عناء يثير السخط .

ومن هنا كان أساس التحامل المروع من الرجل المتعلم العادى ضد مجرد صورة النظم .

وتكوين الذوق الأدبى لا يمكن أن يتم إلا بالتغلب على ذلك التحامل .

وتنحصر مهمتى الشاقة فى اقتراح طريقة للتغلب عليه . وإنى هنا أتوجه بحديثى كلية إلى طبقة كبيرة من الناس ، وهم الذين ، إن كانوا أمناء ، فسوف يعلنون أنهم ، بينما يستمتعون بالروايات والمقالات ، والتاريخ ، لا يمكنهم أن « يحتملوا » النظم . فالحالة فى غاية الحساسية ، ككل الحالات العصبية . وليس هناك من فائدة فى استخدام فنون العقل وطرق التفكير المنطقى ، لأن الموضوع خارج عن حدود المنطق ؛ فهو شىء غرزى .

ومن العبث تماما أن أؤكد لك أن النظم ينتج نسبة مئوية من السرور أعلى من النثر ! لأنك سوف تقول : « نحن نصدقك ، ولكن ذلك لا يساعدنا » .

ولهذا لن أجادل ، وستكون لدى الجرأة على أن أصف علاجنا ناجعا (فالأطباء لا يجادلون) ، ورجائى منك أن تتبعه بدقه ، محافظا على أعصابك وهدوئك . ففقدان ضبط النفس قد يقود إلى هلع . والهلع يقضى على كل شىء .

أولا : انس نسيانا تاما ؛ بقدر ما تستطيع ، كل أفكارك الحالية عن طبيعة النظم والشعر . فخذ قطعة من الاسفنج ، وامح بها كل ما فى لوحة عقلك . وعلى الأخص لا تضايق نفسك بالتفكير فى البحور وصور النظم .

ثانيا : اقرأ مقالة وليم هازلت « فى الشعر العموم » . وهذه المقالة هى الأولى فى الكتاب الذى عنوانه : « محاضرات فى الشعراء الانجليز » .

وقد كان من الممكن أن أكتب مقالة بنفسى عن الطبيعة الحقيقية الوديعة للشعر على العموم ، ولكنى وجدت أنها لن تكون إلا صدى وإفساداً لمقالة هازلت . فلقد بين الحقيقة عن الشعر أحسن تبيين فى طريقة شائقة وواضحة ، ومريحة للنفس . وعلى كل ، لا أتوقع أنك ستلم ، على الفور ، بما فى المقالة من مغزى ، وحماسة . بل يحتمل أن تتراءى لك . غير مترابطة الأجزاء . ولكن مع هذا ، ستترك جزئيات ناصعة من الأفكار فى عقلك .

ثالثا : بعد أسبوع . كفترة من الراحة . اقرأ المقالة مرة ثانية . وفى القراءة الثانية سوف تتراءى أكثر إغراء لك .

رابعا : افتح الإنجيل . واقرأ الفصل الأربعين « أشعياء » . فهو فصل يبدأ بقوله : « ياقومى ، أريحوا أنفسكم ، أريحو أنفسكم » . وينتهى بقوله : سوف يجرون ولا يتعبون ، وسوف يمشون ولا يخرون مغشيا عليهم » . هذا الفصل لاريب سوف تألفه على أية حال ، ولن يعجزه (مهما كانت عقيدتك الخاصة) أن يؤثر فيك ، وأن يولد فى عقلك إحساسات سوف تعترف أنها من طبقة عالية غير عادية ، وستسلم بأنها سارة . ويحتمل أن توافق (حتى ولو كانت عقيدتك الخاصة مضادة لتعاليمه) على أن نتيجة قراءة هذا الفصل ألطف من نتيجة قراءة قصة قصيرة فى مجلة أو حتى مقالة لتشارلز لام . والآن : فالإحساسات السارة التى نتجت عن الفصل الأربعين لأشعياء من بين الاحساسات التي تنتج عادة

من شعر الدرجة الرفيعة ، لأن كاتبه كان شاعرا عظيما جدا ، وما كتبه قصيدة عظيمة جدا .

خامساً : بعد الانتهاء من قراءته ارجع مرة أخرى إلى هازلت ثم انظر هل تستطيع أن تجد أى شىء فى محاضرات هازلت يلقى ضوءا على نفسية عواطفك الخاصة عند قراءة أشياء .

سادسا : الخطوة التالية إلى النظم المبرأ من العيب . وهى أن تقرأ إحدى قصائد وردزورث القصصية القصيرة : « الاخوة » . أريد منك أن تقرأ هذه القصيدة بصوت عال . ولكى تفعل ذلك ، قد تضطر إلى إخفاء نفسك فى مكان ما ، لأنك حتى الآن لن يهمك أن يسمعك الناس خلسة تلقى الشعر . ولكن فيك من الخير ما يجعلك تنسى أن « الاخوة » شعر . فما « الاخوة » إلا قصة قصيرة ، مع عقدة بسيطة وواضحة . اقرأها على هذا الأساس ، واقرأها ، بكل بساطة ، من أجل القصة ؛ وإنه لمهم جدا عند هذه المرحلة الحرجة ألا تثير مضايقات لعقلك بالتفكير فيما كان يشغل بالك من قبل مثل « الصورة » التي قص بها وردزورث قصته . فهدف وردزورث كان أن يقص قصة جيدة بقدرة ما يستطيع .

ذلك هو كل ما فى الأمر . وفى أثناء قراءتك بصوت عال لا تعر أى اهتمام للوزن أكثر مما تحس أنك ميال بطبيعتك لفعله . فبعد أبيات قليلة سوف يقدم الوزن نفسه إليك ، ولا تقلق على ماذا عسى أن يكون نوع الوزن . وحينما تنتهى من القراءة الثانية اختبر احساساتك ..

إن إحساساتك بعد قراءة هذه القصيدة ، وربما بعد قراءة واحدة أو اثنتين من قصائد وردزورث القصصية الأخرى ، مثل Michael ، سوف تختلف عن الإحساسات التى ولدتها فيك قراءة قصة قصيرة عادية ، أو حتى غير عادية ، من النثر . وقد لا تكون هذه الاحساسات حادة جدا ، ولا واضحة جدا ، ولا لاذعة، لكن أغلب الظن أنها ستكون ، فى خفائها ، وغموضها ، أكثر تأثيرا فى النفس .

ولست أقول أنها سوف تكون مسلية ، ولا أذهب بعيدا إلى حد القول إنها سوف تثير دهشتك كإحساسات سارة . (وليكن راسخا فى الذهن أنى أتوجه بالحديث إلى شخص خيالى مبتدىء فى الشعر .) . وإنى لأميل إلى وصفها بأنها « مزعجة » . نعم ، فإزعاج الروح من أعظم أغراض الفن ، وإزعاج الروح واحد من ألطف أنواع السرور التى يمكن أن يستمتع بها رجل فى درجة عالية من النظام . لكن هذه الحقيقة لا يمكن أن تدرك حقا إلا بتكرار التجربة . وإذا أردت مساعدة على إجراء إختبار أعنف لمشاعرك تحت تأثير وردزورث ، لكى تفهم ، فهما أحسن ، ما كان يحاول أن يبثه فيك من تأثير ، والوسائل التى استخدمها ، فيجب على أن أوجهك إلى وردزورث نفسه . فوردزورث ، بالإضافة إلى كونه شاعرا ، كان ناقدا للشعر لا يفوقه أحد . وما فعله هازلت للشعر فى سبيل خلق شغف به ، قد فعله ورد زورث فى سبيل توضيح فلسفى له . وتوضيح وردزورث للشعر نظريا وعمليا مكتوب بأسلوب يصلح للرجل البسيط ، ولا يمكن أن يفوت إدراك أى إنسان ؛ وبساطته المباشرة ، الهادئة ، غير المصطنعة جذابة إلى درجة عظيمة .

ومقالات وردزورث التى يصح أن تعتبر الأساس فى إلقاء ضوء عليه هو نفسه هى « إعلان » و « مقدمة » و « ملحق » للقصص الشعرية الغنائية ، ورسائله

إلى ليدى بيومنت و « الصديق » و « مقدمة » للقصائد المؤرخة بعام ١٨١٥ . هذا الموضوع كله مهم بشكل عجيب ، وذو قيمة تعليمية عظيمة ، وهو كلام رجل ذى خبرة من الطراز الأول يتحدث فى سهولة عن موضوعه . والمقالات التى تتعلق بالقصص الشعرية الغنائية سوف تكون أعظم الأشياء فائدة لك .

وهؤلاء الذين لم يقرءوا ما كتبه وردزورث عن الشعر لا يمكن أن تكون لديهم فكرة عن السحر الحقيقى غير المصطنع ، والأضواء القوية التى تشع عن شرحه . مما له أكبر الأثر فى مساعدة الإنسان . وإنى لأشعر أنه لا يمكننى أن أفرض عليك نقد وردزورث فرضا .

وبين وردزورث وهازلت سوف تتعلم كل ما يجب عليك أن تعرفه عن طبيعة الشعر ، وأغراضه ، ونتائجه ، وليس جزءا من خطتى أن أشرح بالتفصيل الدقيق كل ما يتعلق بوردزورث وهازلت ، وأحسن ما بقى بغرضى ينحصر فى أن أحيلك فى الحال إليهما . لكن عندى نقطة واحدة أحب أن أوردها — وهى عبارة عن تحليل نفسى . تلك هى أن إحدى العقبات الأساسية التى تعترض الثقافة الشعرية لدى الرجل العادى الحساس فكرة باطلة ، وهى عبارة عن زعم سخيف تُضخم عبثا وباطلا .

فهناك فى قاع عقل ذلك الرجل فكرة مؤداها أن الشعر « حمق » وعبث يثير الضحك والسخرية . ويعتقد ذلك الرجل أنه يجد الشعر مبالغا فيه ، وأنه شىء صناعى لا طبعى ؛ لكن هذين الاتهامين الأخيرين ضد الشعر يمكن ردهما ردا مقنعا . أما تهمة الحمق ، وأنه عبث يثير الضحك والسخرية ، فلا يمكن ، على أية حال ، أن تدحض بالمجادلة . كما لا يمكن أن تكون هناك إجابة منطقية للضحك الشنيع ، وهذا الإحساس بأنه يثير السخرية ليس إلا عادة أطفال سيئة ، هى

فى نفسها سخيفة بشكل غريب . وقد تراها على الخصوص ، فى المسرح . ولا يستطيع أعظم كاتب روائى ، ولا أعظم مؤلف ، ولا أعظم ممثل أن يمنع أحد النظارة من الضحك بجلية ، فى لحظة محزنة ، إذا عبرت قطة خشبة المسرح . لكن لماذا يفسد المنظر بسبب الضحك ؟ السبب ، بكل بساطة ، أن الغالبية فى أى جمع من النظارة أشبه بالأطفال . والإحساس بالسخف هذا يمكن القضاء عليه بتمرين القوة الخلقية المنوبة ، ومن المستطاع تخويفه . فإذا كنت تميل إلى الضحك ، حينما يعبر شاعر عن نفسه أقوى مما تعبر عن نفسك ، أو حينما يتحدث شاعر عن مشاعر لا تذكر عادة فى الصحف اليومية ، أو حينما يستعمل شاعر كلمات وصورا لا تدخل فى نطاق قاموسك اللغوى ، ولا فى حدود تفكيرك ، فحينئذ يجب عليك أن تأخذ نفسك بالتعهد والرعاية ، يجب عليك أن تقرر أين ستكون : أفى جانب الملائكة ، أم فى جانب البلهاء ، وليس هناك دليل مؤكد على النقص فى التطور والتقدم أعظم من وجود ميل يدفعك إلى الضحك مما هو أرق من العادى ، أو حقيق غير مصطنع ، أو حافل بمظاهر الروعة والجمال . فإذا اخترت أن تفعل هذا أمكنك أن تجد القطة تعبر خشبة المسرح فى أسمى نصوص الأدب ، لكن النفوس المهذبة الراقية سوف ترثى لحالك .

ودراسة نقد وردزورث تمثل الخطوة السابعة فى شوط العلاج الذى أوصى به .

أما الخطوة الثامنة ، فهى الرجوع إلى قصائد وردزورث التى طالعتها من قبل ، وقراءتها ثانية فى الضوء الكامل لدفاع المؤلف وتوضيحه . واقرأ وردزورث كثيرا بقدر ما تستطيع أن تتمثله ، لكن لا تحاول قراءة أية واحدة من قصائده الطويلة . وعلى كل ، فقد حان الوقت الآن لقصيدة طويلة .

وهنا أبدأ نصحى للمؤلفة قلوبهم بالشعر القصصى . . فالفردوس المفقود »

شعر قصصى ؛ وكذلك «التوطئة»، ولن اقترح أحد هذين العملين العظيمين. بل اختار Aurora Leigh لإليزابيث براوننج. فإذا حدث مرة أن شغلت نفسك «فى» هذه القصيدة، وجعلت أساس اهتمامك (كما حدث مع وردزورث) منحصرا فى حوادث القصة، ولم تسمح لنفســك أن تسبب لك ضيقا وضجرا بفكرة أن ما تقرؤه «شعر» — إذا فعلت هذا فمن المحتمل ألا تتركها دون أن تنتهى منها كلها. وقبل أن تصل إلى النهاية، ستكون قد واجهت «فى الطريق» كل أنواع حالات الشعر التى توجد فيه: حزين، وفكاهى، وتهكمى، ورثائى، وغنائى — كل شىء. وسوف تحصل على معرفة شاملة للعقلية الشاعرية. ومن المؤكد أنك سوف تسير آمنا على طول الخط، حتى تصل إلى النهاية سالما، إذا عاملت هذا الانتاج الأدبى كرواية، لأنها، فعلا، رواية، بل إنها أحسن من أية رواية أخرى كتبتها تشارلوت برونتى، أو جورج إليوت. وفى أثناء القراءة، يحسن أن تضع علامة مميزة، أو تدون مذكرة للنصوص التى تبعث فيك أعظم أنواع السرور، ثم قارنها، بالنصوص التى استحسنها وأثنى عليها ناقد يعتد به.

فإذا ما انتهيت من ذلك، ووصلت إلى هـــذه الدرجة، يجوز لك أن تختار شعراءك، فإن رجعت ثانية إلى هازلت فسترى أنه قد اتصل ضمن آخرين، بتشوسر، وسبنسر، وشيكسبير، وملتن، ودرايدن، وبوب، وتشاترتن، وبيرنز، ومدرسة البحيرات. وقد تختار أحد هؤلاء، وتقرؤه تحت ارشاده. وإذا كان مما قاله وردورث: «لقد استولى على اعتقاد مؤداه أن هناك أربعة من الشعراء الانجليز يجب على أن أضعهم أمامى باستمرار كنماذج — تشوسر، وشيكسبير، وسبنسر، وملتن» فإنى هنا أحب ان أقول (كلمة الرجل العاقل الحكيم!): إن وردزورث

خامس هؤلاء الأربعة . ولا يغيب عن البال أن الشعر الحديث يجب أن يقرأ جنبا إلى جنب بنفس العناية والحماسة اللتين توجدان وقت دراسة إحدى قصائد الكلاسيكيات المقطوع بروعتها .

(وإنى لآمل أن تقبل الحقيقة التالية : إذا أوحت إليك دراسة الشعر الكلاسيكى بكراهية للشعر الحديث ، فلا بد أن يكون فى طريقة تطورك شىء ما خطأ لدرجة خطيرة) . ويجوز لك عند الوصول إلى هذه المرحلة (لا قبلها) أن تبدأ فى البحث عن مسائل التفعيل ، وتكوين النظم ، والقافية . وإن أردت ذلك فهناك كتاب للاستعمال اليدوى فى العروض الانجليزى ، ممتاز ، وصغير ، ومختصر ، ورخيص ، ألفه روبرت سوان ، وفرانك سدجويك واسمه : « صناعة الشعر » مرشد إلى بحور الشعر الانجليزية[1] .

فبوجود شىء يدوى كهذا ، أمامك ، تستطيع أن تحصل ، فى ظرف ساعتين اثنتين ، على معرفة القواعد الشكلية التى أسست عليها موسيقا الشعر الانجليزى . وهذا العمل بسيط ، لكن العمل لتقدير الروح الباطنية العميقة التى توجد فى أعظم الشعر عمل هائل عظيم ويستغرق عمرا طويلا . وهو ليس شيئا مما يمكن أن يكون « مصطنعا » .

---

(1) The Making of Verse : A Guide to English Metres.

الفصل العاشر

نصائح أوسع

لقد دونت ، حتى الآن ، ما يظهر لى أنه ضرورى ، من التبصرة ، والنصيحة ، والحث ، والتحذير ، فى سبيل المساعدة على القيام بهذا العمل الحساس العسير وهو تكوين الذوق الأدبى . وعالجت نظرية الأدب ، ونفسية المؤلف . وكذلك نفسية القارىء لأن لها من الأهمية ما لسابقيها .

وحاولت أن أوضح المؤلف للقارىء ، والقارىء لنفسه . ولم أذهب إلى تفصيلات أبعد ، لأن ذلك لو حدث لكان مجاوزة لغرضي الأصلى ، ولما كان هناك حينئذ أمل مطلقا فى الانتهاء بتلك الخطة التى تتسع باستمرار إلى ختام منطقى معقول . فليس غرضى أن أقدم خريطة ، بل بوصلة — وهاتان آلتان مختلفتان جدا . كل ما هنالك أنه فى سبيل النصح العام بقى على فقط أن أضع أمامك ثلاثة إرشادات تصلح للاستعمال ، بشكل أوسع مما قدمت حتى الآن ، عندما يقوم الانسان بالقراءة .

إن لديك فى جنبات نفسك ، محكا ، تستطيع فى النهاية أن تفحص به — ويجب أن تفحص به — كل كتاب تقرؤه وتفهمه ، فتسأل نفسك هذا السؤال : هل يتراءى لك الكتاب أمينا وصادقا ؟ إذا كان كذلك ، فلن تحتاج حينئذ إلى أن تقلق على مشاعرك السريعة التى تنشأ فى الحال ، أو العواقب المحتملة فى المستقبل لهذا الكتاب . فسوف تحب الكتاب فى النهاية ، وستكون محقا فى حبك له .

وإن الأمانة فى الأدب ، كما فى الحياة ، هى الصفة التى يعتد بها أولا ، ويعتد بها آخرا . لكن احذر المشاعر السريعة . فالحق لا يكون على الدوام سارا . والومضات الأولى للحق عادة تكون بكل تأكيد مبلبلة جدا ، كما أنها تكون قطعا ، غير سارة ، فتندفع نحن إلى التسرع بالابتعاد عنها ، لأنه ليس بيننا وبينها أية صلة . وإذا أثار كتاب فيك ازدراء حقيقيا ، فلك أن تنحيه بعيدا عنك . وعلى كل حال ، يجب أن تكون يقظا ، خشية أن تخلط الازدراء بالغضب . فالكتاب إذا حرك فيك الغضب حقا ، فمن المحتمل جدا أن يكون هذا الكتاب كتابا جيدا . لأن معظم الكتب الجيدة تبدأ بإثارة الغضب الذى يتنكر فى ثوب ازدراء . وإذا طالبت المؤلف بالأمانة فيجب أن تتحقق من وجودها فيك نفسك . فأمانة الشخص مع نفسه ليست بالأمر الهين كما تظهر . ويجب أن يختبر الإنسان كلا من إحساساته وعواطفه على انفراد دون اتصال بينهما . فحينما تقذف الكتاب بعنف ، أصغ إلى نفسك ، وتحقق هل تستطيع أن تسمع صوتا خافتا فيك يقول : « إنه صادق ، ولو ! » وإذا أدركت تلك الهمسة ، فخير لك أن تستسلم لها بأسرع ما تستطيع ، لأنه إن عاجلا ، وإن آجلا ، سوف يكون النصر لهذا الصوت . وبالمثل حينما تحتضن كتابا ، اجعل أذنك دائما مرهفة للإنذار الخفى : « نعم ، لكنه ليس صادقا » لأن الكتب الرديئة بمداهنتها إياك ، وملاطفتها لك ، وجاذبيتها لناحية الضعف أو الضعة التى فيك ، غالبا ما تغريك أن تقول يالها من كتب جميلة فاخرة . (طبعا ، أنا أستعمل كلمة « صادق » فى معنى واسع وجوهرى . ولست بالضرورة أقصد الصادق بالمعنى الحرفى ؛ إنما أعنى الصادق بالنسبة لمستوى التجربة التى يدور حولها الكتاب . فالصدق الذى فى Ivanhoe مثلا ، لا يمكن أن يقدر بنفس المستوى الذى يقدر به الصدق فى « التاريخ الدستورى » لستاب .) . فلو أن الإنسان عندما يقرأ كتابا ، يسأل نفسه بإخلاص : « أهو صادق ؟ » ثم يجيب

إجابة صادقة تشفى غلة نفسه ، لساعده ذلك بالتأكيد على تكوين الذوق الأدبي أكثر من أية طريقة أخرى . ولست أزعم أن هذا السؤال وتلك الإجابة عنه يكفيان تماما ، فالكتاب الصادق لا يكون على الدوام عظيما ، لكن العظيم لا يكون مطلقا غير صادق .

وارشادى الثانى هو : فى قراءتك يجب أن يكون أمامك هدف ما معين — هدف غير الرغبة فى الحصول على السرور . وأعتقد أن هبة السرور هى أسمى غاية لأى عمل فنى ، لأن السرور الذى ينتجه أى فن يبعث النشاط والقوة ، ويحدث تغييرا فى الحياة التى يدخل فيها . لكن أقصى درجات السرور لا يمكن الحصول عليها إلا بمجهود منتظم ، والمجهود المنتظم فيه معنى ترتيب ذلك المجهود .

فالمشى فى الهواء الطلق رياضة عظيمة ، بل المشى نفسه عظيم ، ومع هذا . فالرجل العاقل على العموم حينما يخرج للرياضة مشيا يكون له هـــدف إضافى . فهو يقول لنفسه إما أنه سوف يصل إلى نقطة معينة ، وإما أنه سوف يسير بسرعة معينة لبعد معين ، وإما أنه سوف يبقى على قدميه لوقت معين . فهو يرتب مجهوده لأنه ، إلى حد ما ، يريد أن يحصل على بعض الفوائد الأخرى بجانب فائدة المشى ، لكنه يفعل ذلك لأنه ، فى الأصل ، يريد أن يتحقق من أن المجهود سوف يكون مجهودا كافيا . كذلك الحال فى القراءة .

فهدفك الرئيسى من الانهماك فى الأدب هو المتعة ، لكنك لن تصل إلى تحقيق هذا الهدف تحقيقا تاما إذا لم يكن لك هدف إضافى يحتم عليك أن تقيس جهدك . وهدفك الإضافى يجوز أن يكون جماليا . أو خلقيا ، أو سياسيا ، أو دينيا ، أو علميا ، أو أدبيا ؛ ويجوز أن تخصص نفسك لرجل ، أو موضوع ، أو عصر ،

ترجمة ، أو فرع من فروع الأدب ، أو فكرة — فلديك أوسع مجال لاختيار هدف ؛ لكن يجب أن يكون لك هدف معين . وفى ملاحظاتى السابقة بالنسبة للطريقة فى القراءة نصحت — فى غير إصرار — بساعات منتظمة للدراسة . لكنى هنا أنصح وأصر على تحديد تاريخ لإتمام عمل معين ، ولا يكفى ، مثلا ، أن تقول : « سوف أحيط بكل شىء عن مدرسة البحيرات » . بل لا بد أن يقول : « سوف أحيط بكل شىء عن مدرسة البحيرات قبل أن تتقدم بى السن عاما . » وبدون هذه الإجراءات الاحتياطية لشحذ العزيمة سيكون خطر الإخفاق المهين جسيما لدرجة شنيعة .

أما إرشادى الثالث فهو : اشتر مكتبة . فمن الواضح أنك لا تستطيع أن تقرأ ما لم يكن لديك كتب . وأبدأ شورتى بالحث على مداومة شراء الكتب — أى كتب ذات قيمة معترف بها ، دون اهتمام بما عسى أن يكون لها من تأثير سريع على حالتك الخاصة . وقد حان الوقت لأن أخبرك بكل صراحة ، أن رجل الكتاب ، هو ذلك الرجل الذى علك — ضمن أشياء أخرى — كتبا كثيرة . فالرجل الذى لا علك كتبا كثيرة ليس رجل كتاب . ومنذ سنين تفضلت السلطات الأدبية على الجمهور الأدبى بقوائم مختارة اختيارا يثير الدهشة « لأحسن الكتب » — أحسن الروايات ، وأحسن كتب التاريخ ، وأحسن القصائد ، وأحسن الانتاج الفلسفى — أو المائة الأحسن ، أو الخمسين الأحسن من جميع الأنواع . والسيئة الشنيعة لمثل هذه القوائم أنها تركت كمية ضخمة من الأدب لا يمكن الانسان أن ينكر أنها من الدرجة الأولى . ورجل الكتب لا يستطيع أن يقنع نفسه بمكتبة مختارة ، فهو يريد — على الأقل — مكتبة كاملة ، إلى حد معقول ، فى كل الأقسام . وعندما يتم له مثل هذا الأساس ، يستطيع بعد ذلك ، أن يتجول

فى تلك الأماكن الفرعية التى تشترى الكتب ، فقد يجد فيها ما يجوز استحسانه وكل رجل يهتم بأى فرع من فروع أدبه القومى ، ويحترم نفسه ، ينبغى أن يكون لديه مكتبة واسعة شاملة للأدب فى طبعات مناسبة جميلة : وقد تظن أن هذه النصيحة ، نصيحة للوصول إلى درجة الكمال . لكنها ليست كذلك .

ولقد وضع مارك باتسون قاعدة ، هى أن الشخص الذى يرغب فى أن يسمى « عاشق الكتاب » يجب أن ينفق خمسة فى المائة من دخله على الكتب . والاقتراح لا يظهر مسرفا ، ولكن ، حتى بنسبة أقل من خمسة فى المائة ، يمكن قارىء هذه الصفحات العادى أن يصبح ، فى وقت قصير نسبيا ، مالكا لمكتبة كاملة إلى حد معقول ، وأقصد بها ، مكتبة تحتوى على الانتاج الكامل للعباقرة الممتازين ، وتمثل الانتاج المهم لرجال الطبقة الأولى فى كل الأقسام ، ونماذج من انتاج رجال الطبقة الثانية الذين لا تزال شهرتهم ، حقا شهرة حية اليوم .

[وهنا أشار المؤلف إلى مشروع المكتبة الذى حذفناه فى الترجمة كما أشرنا إلى ذلك فى المقدمة فقال :] ومشروع المكتبة الذى أضعه بين يديك الآن ، يبدأ من قبل تشوسر ، وينتهى بالوقت الحاضر ، وإنى لواثق تماما أن غالبية الناس سوف تعتريهم الدهشة من رخصها ، وإلى مبلغ علمى ، ليس هناك مطلقا ، مشروع كهذا طبع من قبل .

الفصول

الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر

المكتبة الانجليزية

[فى هذه الفصول ذكر المؤلف قوائم الكتب التى رآها ضرورية لتكوين مكتبة فى الأدب الانجليزى . وقد صدر عمله هذا بالإشارة إلى أنه قسم الأدب الانجليزى إلى أربع فترات ، دون تقيد بالعصور التاريخية ، وأن جل همه ، فى هذا التقسيم ، كان موجها إلى ماسوف تشغله قاعة كل فترة من مكان فى رفوف المكتبة ، وما تكلفه من نفقات . وهذه الفترات الأربع هى : —

١ — من البدء إلى حوالى نهاية القرن السابع عشر .

٢ — القرن الثامن عشر .

٣ — القرن التاسع عشر .

٤ — السنوات الخمس والثلاثون الأولى من القرن العشرين .

ثم أشار إلى أن قاعتى الفترتين الثالثة والرابعة سوف تشغلان أكبر حيز ، وستكلفان معظم النفقات ، ثم عقب على ذلك بأن هذا ليس بالضرورة لأنهما يحتويان على كتب كثيرة أعظم مما فى الفترتين الأخريين ، بل لأنهما أقرب إلينا ، ولهذا فهما غنيتان بما هو أكثر أهمية لنا .

أما من حيث اختيار الكتب ، فبين أنه لم يقتصر على الكتب ذات الأهمية

الأدبية الخالصة فحسب — بمعنى الانتاج الذى هو فى الأصل من عمل الفن الأدبى . ووضح أنه لم يقصره على ذلك لأن الأدب مركبة الفلسفة ، والعلم ، والأخلاق ، والدين ، والتاريخ .

والمكتبة التى تصبو إلى الكمال يجب فى نظره أن تحتوى ، بالإضافة إلى الإنتاج الخيالى ، على كل هذه الأنواع التى هى فروع النشاط العقلى . ولكى تشتمل على كل هذه الفروع ، لا يمكن أن تتجنب الاشتمال على إنتاج يكون الاهتمام الأدبى فيه معدوما تقريبا .

ثم قال إنه من ناحية أخرى ، قد أخرج الأنواع الآتية من اعتباره : —

١ — الانتاج الذى تنحصر أهميته فى أن يكوّن حلقة فى سلسلة التطور ، والتقدم ، ولا يقرؤه إلا الأساتذة والباحثون من الطلبة الذين يريدون أن يكونوا أساتذة .

٢ — الانتاج الذى لم يكتب فى الأصل باللغة الانجليزية .

ولكنه هنا يذكر أنه اضطر إلى استثناءات قليلة . لأنه رأى أن المكتبة الكاملة لا يصح أن تخلو منها ، لمالها من أهمية عظيمة .

٣ — الترجمة من أدب أجنبى إلى الانجليزية .

ثم بعد ذلك أورد قائمة الكتب الأولى ، وذكر بجانب كل كتاب طبعته وثمنه وقت تأليفه هذا الكتاب .

وكان ترتيب هذه القائمة بأن ذكر أولا كتب النثر ، ثم قال إنه لم يذكر ضمن قائمته هنا بعض كتب لمؤلفين مشهورين لأنها ليس ذات قيمة أدبية من الطبقة الأولى ، وأشار إلى أنه لم يذكر الكتاب المقدس لأنه أولا مترجم ، ولأنه ثانيا

يظن أن القارىء لديه نسخة منه من قبل . ثم أورد قائمة الشعر . وبعدها تحدث من بعض أدباء ليس لهم انتاج كبير يستحق أن يذكر ، ولكنه أشار إلى أن بعض قصائدهم مذكورة فى مختارات أدبية ، وذكر أسماءهم .

وفى النهاية ذكر ملخص القائمة الأولى بين فيه عدد المؤلفين والكتب وأثمانها .

أما قائمة الفترة الثانية فكانت موضوع الفصل الثانى عشر . وفيها ذكر الكتاب ، ثم الشعراء . وفى النهاية لخصها كالقائمة الأولى .

وفى الفصل الثالث عشر أورد قائمة الفترة الثالثة وقد ذكر فيها مؤلفى الروايات ، ثم كتاب النثر غير هؤلاء المؤلفين ، ثم الشعراء . وختم الفصل بتلخيص للقائمة كما فعل فى الفصلين السابقين .

وفى الفصل الرابع عشر بيّن أن القوائم التى سيذكرها فيه تحتوى على أشياء أوردها عن تجربة أكثر مما ذكر فى الفصول السابقة ، وأنها تحتوى على أسماء لمؤلفين أحياء . وبعد أن أشار إلى ما يوحى به ترتيب الأسماء من تجديد فى الأدب ، وقيمة هؤلاء الأحياء على العموم . قال إن أى قارىء يتبع هذه القوائم بمرونة سوف يكون فى حالة عقلية تسمح له بأن يتحدث عن الأدب المعاصر بمقاييس شخصية ، وسيكون لديه ما يعرف بالأساس الأدبى . ثم وجه الحديث إلى القارىء فقال :

« حينما تقرأ هذه الكتب كلها أو معظمها وتحس بما فيها من سرور ومتعة ، يجوز أن تهمس إلى نفسك بأن ذوقك الأدبى قد تكوّن ، ولك بعد هذا أن تنطق بالحكم على أى انتاج حديث تحكم فيه عقلك وأنت متأكد تماما من أنه ، ولو أن الخطأ من طبيعة البشر ، فإنك ، على أية حال نعرف تماما ما تتحدث عنه » .

ثم ذكر المؤلف أن القوائم هنا ثلاثة ؛ الأولى تحتوى على كتب كان أصحابها من كتاب القصة أو الرواية ؛ والثانية فيها الكتب التى لها قيمة أدبية عالية ، ومؤلفوها رحالة أو علماء أو فلاسفة . أما الثالثة فتضم انتاج هؤلاء الذين يعرفون أو يوصفون بأنهم أحسن الشعراء .

ثم أورد هذه القوائم ولخصها فى النهاية كما فعل فى القوائم السابقة .

وفى النهاية أتبع ذلك بملخص لقوائم الفترات الأربعة وجملة أثمانها .

وبعد ذلك كتب ملحقا للفصل الرابع عشر ذكر فيه كتبا أخرى بعضها لمؤلفين حديثين وبعضها لمؤلفين أقدم نسبيا ، وبعضها مجموعة من الاختيارات ثم ختمها بملخص لها كما فعل فى القوائم السابقة].

الفصل الخامس عشر

الجـــرد العقلى

إن الكتب العظيمة لا تنبع مصادفة من شىء ما عرضى فى الرجال العظماء الذين ألفوها . بل أنها تنبع من أعماق قلوبهم ، وتعبير عن حياة المؤلفين نفسها . ولا يمكن أن يقال إن الأدب قد أدى غرضه الحقيقى مالم يترجم لحياة الشخص الذى يقرؤه ؛ ولا يمكن أن يكتب له النجاح حتى يصير أداة الحيوية . وإذا كان التقدم هو النتيجة التدريجية للحرب اللانهائية بين العقل الإنسانى والغريزة الانسانية ، التى يكون النصر فيها — بيطء ، ولكن بالتأكيد — للأول . فإن أعظم الآلات قوة فى هذه الحرب هو الأدب ، فهو الصهريج الواسع للأفكار الحقيقية والعواطف السامية — والحياة لا تقوم إلا على الأفكار والعواطف . وإن عالماً محروما من الأدب ، سرعان ما يغور فيه النشاط العقلى والعاطفى لدى جميع الناس ما عدا فئة قليلة من الرجال الموهوبين ، ويتقلص فى دائرة ضيقة ، وينتهى الأمر فيه بالممتازين ذوى العقل الواسع والنبل والكرم إلى الاختفاء لعدم وجود مورد ينهلون منه فى يسر واطمئنان . ومن ثم تنحط الحياة لأن الفكرة الخداعة ، والعاطفة الحقيرة ، لن تشعر بما يرتفع بها عاليا إلى السمو الذى فى أفكار العباقرة وعواطفهم . فتصور مجتمع بدون أدب كاف وحده ، للتأكد بوضوح من أن وظيفة الأدب هى أن يرفع الوهاد إلى مستوى القمم . ولا يوجد الأدب إلا لغرض ، هو أنه حيثما عاش رجل واحد فى نعيم ، فإن

عشرة آلاف بعده يحتمل أن يعيشوا فى نعيم مثله ، فهو وسيلة الحياة . ولا يهتم إلا بروح الحياة .

وبطبيعة الحال ، للأدب وظيفة صغيرة ، تنحصر فى جعـــل الوقت يمر فى صورة مقبولة لا ضرر فيها بما يمنحه من سرور وقتى ضئيل .

وإذا كانت الجماهير الغفيرة من الناس (قد لا يعد من بينهم نفر قليل من معتادى القراءة) يستغلون الأدب لهذه الوظيفة الصغيرة فقط ؛ بوقوعهم فى عده ضمن طبقة الجولف ، أو الورق ، أو المنومات . فإن العبقرية الأدبية ، على أية حال ، لم يخطر ، ولن يخطر لها على بال مطلقا أن تدخل فى مضاربة مع هذه الحيل لتمضية الساعات الفارغة . وكل إستعمال كهذا للأدب ينبغى أن يخرج من الحساب .

وأنت ، أيها الطالب الجاد صاحب المجلدات الـكثيرة ، يجب أن تعتقد أن لديك عاطفة صادقة للقراءة . وأن تعلقك بالأدب شرف تفخر به ، وأن آخر شيء تتمناه أن تنزله لغاية حقيرة . فلست من هؤلاء الذين يقرءون لأن الساعة قد أعلنت الآن التاسعة ، ولا ينبغى أن يذهب المرء إلى السرير حتى الحادية عشرة .

بل يبعث الحياة والانتعاش فيك رغبة حقيقية فى أن تستخرج من الأدب كل ما يمنحه الأدب ، وفى سبيل تحقيق هذا الهدف تستمر فى القراءة سنة بعد سنة إلى أن يأتيك المشيب . لـكن فى وسط كل هذا الصب الثابت المستمر من تلك الصنابير المفتوحة فى الصهريج ، هل قمت قط بمجرد لما قد حصلت ؟ هل تتوقف لحظة لتقوم — على حد اصطلاحات حياتك الخاصة — بتقدير لذلك الذى تمتصه ، أو الذى تتخيل أنك تمتصه كل يوم ؟ وهل تقنع نفسك بالبرهان أنك تمتص

أى شىء على الاطلاق ، وأن مياه الحياة ، بدلا من أن تحييك ، لا تجرى بعيدا منك ، كما لو كنت بطة فى عاصفة ؟ لأنك ، إذا لم تتخذ بجرد هذا الاجراء الاحتياطى ، فإنه يحتمل إلى حد كبير أن تلحق أنت ، أيضا ، قليلا ، قليلا — دون أن تعرف — بأولئك العابثين الذين يقرءون لأن الحيـاة فى نظرهم أبدية مملة . ويجوز كذلك أن تكون حتى عاطفتك المقدسة المدعاة ، ليست ، بعد كل هذا ، إلا نوعا من ذلك الذى يعتاد تعاطى المنومات . يبدو لى أن الاقتراح يزعجك ويقلقك ، وأنت تحاول أن تستبعده فى ضجر ؛ لـكنه يعود .

(وكأنى اسمعك تسأل فى كراهية) كيف يستطيع الانسان أن يقوم بجرد عقلى ؟ كيف يمكنه أن يقدّر ما يحصل عليه من الـكتب ؟ وكيف له أن يختبر نفسه بشكل فعال ، وفى هدوء تام ، ليعرف هل يستقبل من الأدب كل ما ينبغى أن يعطيه الأدب ؟

إن الاختبار ليس غامضا جدا ، ولا فى غاية الصعوبة ، كما قد يظهر .

فإذا لم تهتز مشاعر إنسان بسبب اتصاله التام بالطبيعة : بالشمس ، بالأرض، التى هى أصله ، والمثير لأقوى عواطفه الحادة —

إذا لم يقلقه منظر الجمال فى صوره الـكثيرة —

إذا عدم لديه حب الاستطلاع المتعلق بزملائه من الناس ، وزملائه من الحيوانات —

إذا لم تـكن لديه ومضات لاتحاد كل الأشياء فى تقدم منتظم —

إذا كان ، فى تاريخه ، متذمرا ، ومكتئبا ، وحسودا —

إذا كان متشائما —

إذا كان من هؤلاء الذين يتحدثون عن « هذا الزمن الذى كله عار » ، « هذا الزمن الذى لا مثل علياله » ، « هذا الزمن المستيرى (المملوء بما يثير الأعصاب ويربكها) » ، « هذا الزمن الذى يعرف الله أى زمن هو » —

فذلك الانسان ، حينئذ ، ولو أنه يقرأ الكلاسيكيات المقطوع بروعتها لمدة عشرين ساعة كل يوم ، ولو أن له ذاكرة من فولاذ ، ولو أنه ينافس بورسون فى التفوق الدراسى وسانت بيف فى الحكم على الأشياء ، فإنه لا يستقبل من الأدب ما ينبغى أن يعطيه الأدب ، وهو الحقيقة مضيع لوقته من أساسه . وإذا لم يكن فى استطاعته أن يقرأ بطريقة مخالفة لتلك ، تخير له أن يبيع كتبه ، أو يعطيها للفقراء ، ثم يلعب كرة الخشب . وهـــذا الشخص يفشل لأنه لا يتمثل تلك الخلاصات الجوهرية التى أفرغتها العبقرية فى الكتب التى مرت مجرد مرور أمام عينيه ؛ ولأن العبقرية قدمت له إخلاصا ، وشجاعة ، ورؤية باطنية صادقة وعاطفة نبيلة ، وعجبا ، وحبا . وتعطشا للجمال ، لكنه لم يقبل الهدية ؛ ولأن العبقرية أتاحت له فرصة الكاملة الحيـــاة ، لكنه نصف حى فقط ، لأنه لا يمكن أن يقال عن الإنسان أنه حقا حى إلا إذا كان يعيش فى جو من الأفكار السامية والعواطف الجميلة . وليس هذا اختلاقا أدبيا ، لكنه حقيقة بسيطة يعترف بها كل أولئك الذين يعرفون أهمية تلك الأفكار والعواطف .

عجبا ! إنك تتحدث عن علم عن مقطوعات شيكسبير ! فهل سمعت عن صيحة شيكسبير الرائعة : —

كم صباح جميل قد رأيت

يداعب قمم الجبال بعين ملكية ،

ويقبل المروج الخضراء بوجه ذهبى .

ويسيل الجداول الشاحبة فى سحر سماوى .

أو نستطيع ، مع هذا ، أن ترى الشمس صباحا فوق قنطرة Loughbrough Junction ، وتبصر أشعتها على صفحة التيمز وهو يجتاز تمثال ديوى الحجرى ، ثم لا نهتز بنشوة الحياة ؟ إذا كان كذلك ، فأنت وشيكسبير ليس بينكما اتصال بعد .

ويا عجبا ! إنك تزهو بتلك الطبعة الجميلة التى لديك من ترجمة كاسبون لكتاب Marcus Aurelius ، وتتذوق إيقاع تلك القطعة الشهيرة فى استمتاع ولذة :

« فى هذا اليوم قد أضطر إلى التعامل مع رجل كسول ، فيه غرابة وعجب ، مع رجل جحود ، بذىء ، ماكر ، مزيف ، أو رجل حسود .

وقد ألمت به كل هذه الصفات السيئة عن طريق الجهل بما هو حقا حسن وما هو حقا سيء . لكن أنا الذى أفهم طبيعة ما هو حسن وهو ما يجب أن يتمنى فقط ، وطبيعة ما هو سيء ، وهو ما يكون فى الحقيقة ممقوتا ومخجلا : وأعرف ، فوق ذلك ، أن هذا المخطىء ، أيا كان هو ، قريب لى ؛ لا من جهة الدم والأصل ، بل من جهة الاشتراك فى نفس العقل ، وفى أصل الخلقة الإلهية — فكيف يمكن أن ينالنى أذى ؟ ... ... »

ومع رنين هذا الإيقاع فى أذنك تذهب وتتشاجر مع حوذى !

ولسوف تخجل من نفسك الأدبية إذا عرف عنك أنك جاهل بوتمان الذى كتب يقول :

« افهمنى الآن جيدا — لقد ثبت من تجاربنا لروح الأشياء أنه ، من أية ثمرة للنجاح ، مهما كان شأنه ، ينبثق مباشرة شيء ما ، يدفع ، حتماً ، إلى جهاد أعظم . »

ومع هذا ، عندما تنجح فى الحصول على سيارة ، تفقد عصابك إذا توقفت فى منتصف الطريق إلى الهضبة !

وتعرف صاحبك وردزورث الذى كان يحاول أن يعلمك شيئا عن :

صاحب الروح المطمئنة

التي تتحمل إهانة الزمن

ومن وسط السرمدية

وكل الحركات الفانية السائدة ، يعيش فى جلال لايتغير .

ولكن يمكنك أن تغتم بشكل خطير ، إذا اختار قطار الضواحى الذى تسافر فيه نفقا لسهولته ! .

وكذلك مع الكتاب المقدس الذى تقرؤه الآن ،لا كما كان أسلافك يقرءونه، ولكن بعتمة جميلة ، خاصة فى الكتب الدينية ، فأنت تذكر .

« مهما ألمّ بك فاقبله بسرور ،

واصبر حينما تصير إلى حالة أقل ،

لأن الذهب يختبر بالنار ، والرجال

المرضى عنهم يمتحنون بأتون المحنة » .

ومع هذا ، فأنت على استعداد لأن تطرح نفسك أرضا ، وتموت ،لأن امرأة قد هزئت منك ! اذهب وافعل !

هل تظن أن بعض أمثلتى قريب من المضحكات ؟ إنه لكذلك ، وقصد بها أن تكون كذلك ، ولكنها ليست مضحكة أكثر من الحياة نفسها . وهى

تصور ، فى أعظم أساليب الحياة اليومية ، كيف تستطيع أن تقوم باختبار لتعرف هل يحقق أدبك مهمته فى الإخبار عن وجودك وتغييره .

وإنى لأقرر أنه إذالم تكن الحوادث والمناظر اليومية لا نستعيد ، ولا نستخدم ، الأفكار والعواطف التى فى الكتب التى قرأتها أو تقرؤها ؛ إذا كانت ذكريات هذه الكتب لا تعمل على سرعة إدراكك الجمال ، أينما كنت ، ولا تساعدك على أن تجد صلة وثيقة بين الصغير الدقيق والعالمى العظيم ، ولا تسرى الألم ، وتمنح الكرامة للحزن — فأنت حينئذ ، سواء بوعى أوبغير وعى ، لست أهلا لمهنتك الرفيعة كرجل كتاب . ربما تقول إننى ألقى عظة ، الحقيقة أننى أفعل ذلك . فحالتى المعنوية ثائرة لدرجة عنيفة .

لأنى حينما أتأمل الفرق بين ما فى الكتب لتقدمه منحة ، وما يكلف القراء أنفسهم من المشقة حتى المشغوفون نسبيا ، ليتلقوا من الكتب ما تقدمه لهم ، يروعنى عدم الكفاية الواضح لدى القارىء المشغوف ، وفشله الظاهر الهادىء . فأنا مثلك يثير عدم الكفاية غضبى الروحى .

وقبل أن تبدأ قراءة انتاج رائع آخر ، ضع أمامك ، فى صف ، كل الروائع الأدبية التى تفخر بأنك قرأتها فى العام الماضى . وخذ الأول فى القاعة ، ذلك الكتاب الذى قرأته بإمعان ، فى عزيمة وثابة كتلك التى تستقبل بها عاما جديدا لدراسة منظمة . وافحص بعد ذلك كل نواحى عقلك ، باحثا عن الأفكار والعواطف التى اختزنتها فيه من ذلك الكتاب . ثم فكّر وتذكر متى خطر ببالك آخر شىء من ذلك الكتاب مناسب لتعاملك اليومى الخاص مع الإنسانية : هل هو تاريخ — فهتى ألقى أمامك ضوءا على السياسة الحديثة ؟ هل هو علم — فمتى أراك نظاما فى فوضى ظاهرة ، وساعدك على أن تضم اثنين واثنين فى أربعة غير منفصلة ؟

هل هو أخلاق — فتى أثر على سلوكك فى شأن بنسين ونصف بين رجل ورجل ؟ هل هو رواية — فتى ساعدتك على أن « تفهم الجحيم وتسامح الجميع » ؟ هل هو شعر — فتى كان منظارا مكبرا ليكشف الجمال لك ، أو نارا لتـــدفىء مشاعرك الباردة ؟ فاذا استطعت أن تجيب عن هذه الأسئلة باقتناع ، فإن جردك من ناحية الثمرة التى جنيتها من عملك مع هذا الكتاب يمكن أن يعد مرضيا . وإذا لم تستطع أن تجيب عنها باقتناع فحينئذ أما أن اختيارك للكتاب كان اختيارا رديئا ، وإما أن اعتقادك أنك « قرأت » الكتاب كان اعتقادا خاطئا .

وإذا كانت نتيجة هذا الجرد تضطرك أن تنتهى إلى أن ثروتك ليست واسعة إلى الدرجة التى ظننت أن تكون ، فمن الضرورى حينئذ أن تبحث عن أسباب عدم التوفيق . والأسباب يحتمل أن تكون متعددة .

فمن الجائز أن تكون قد قرأت كتبا لا قيمة لها ، وهذا على أية حال ، لن أتردد فى أن أقول عنه فى الحال إنه سوء حظ شنيع جدا . ولكن يجب أن يعرف أن القراء المتعودين والثابتين — ما لم يكونوا مستعرضين للكتب — يندر أن يقرءوا كتبا لا قيمة لها . لأنهم ، قبل كل شىء ، مشغولون بالكتب ذات القيمة المعترف بها ، وليس لديهم من الفراغ إلا جزء يسير متروك للانتاج الحديث جدا ، وعلى العموم ، قبل أن يتمكن هؤلاء من أن يمسكوا شيئا من عصرهم ، يكون الزمن أو الناقد قد فصل لهم القمح من القش . لا ! وليس هناك لعدم المبالاة فرصة كبيرة لخداع الطالب الجاد .

ومن الكثير احتمال إساءة الطالب الجاد اختيار الكتب . وهو يفعل هذا بطريقتين — كليا ونسبيا : فمما لا شك فيه أن كل قارىء قديم العهد قد مر بتلك التجربة الغريبة التى تتلخص فى أن « يرى » كتابا ما فجأة ، مع أن عينيه قد

الفتاة عدة سنوات من قبل . فقد يقرأ كتابا ذا شهرة ، ويفكر : « نعم ، هذا كتاب جيد ، إن هذا الكتاب يمنحني سرورا . »

ثم بعد فترة ، ربما بعد منتصف العمر ، يحدث شيء ما غامض لبصيرته العقلية ، فيلتقط الكتاب مرة ثانية ، فيرى في كل جملة دلالة جديدة وعميقة . ثم يقول : « لقد كنت أعمى تماما بالنسبة لهذا الكتاب من قبل . » مع أنه ليس أكثر مهارة مما اعتاد أن يكون . وكل ما هنالك أن شيئا ما قد حدث له .

هب أن ساعة ذهبية عثر عليها رجل افتراضي لم يسمع بالساعات قط ، لكن لديه إحساس الجمال .

لاشك أنه سوف يعجب بالساعة ويسر بها ، ثم يقول : « هذه تحفة جميلة ، وإني لأقدر هذه الحلية المتمة تمام التقدير . » ثم تصور مشاعره حينما يأتي شخص ما ومعه مفتاح فيريها له على حقيقتها ؛ تصور الضياء الذي يغمر مخه في ذلك الوقت . فالمثل تحدث حوادث كهذه للقارىء الذي يديم القراءة في حياته المملوءة بالأحداث ، فليس لديه مفتاح ، ولا يخامره تفكير ما في أن هناك شيئا اسمه مفتاح . ذلك هو ما أدعوه اختيارا رديئا كليا .

أما الاختيار الرديء نسبيا ، فيكون ، حينما يقرأ الإنسان عددا من الكتب في غير نظام ، فتكون النتيجة خليطا من التأثيرات الخافتة يطمس كل منها غيره . لأن الكتب يجب أن يسمح لها بأن يساعد الواحد منها الآخر ، ويجب أن تكون هناك مهارة في استدعائها لمساعدة بعضها بعضا . وقد ينتهي بنا هذا إلى أن بعض القواعد التي ترشد الإنسان وتوجهه شيء لازم وضروري . وكأني بك تتساءل : « وماذا عسى أن تكون هذه القواعد المرشدة ؟ » ومن حسن الحظ ، ليس هناك أحد يستطيع أن يضع قواعدك لك . فأنت ملزم أن تضعها لنفسك . لكني

أعتقد أنه يجب علىّ هنا أن أوجه نظرك إلى هذه الملاحظة الهـامة التى هى : إن ما يعتد به فى عالم العقل ليس العدد ، بل الانسجام . والخطأ الجسيم الذى يقع فيه القارىء العادى الحسن الوعى بالنسبة للحقائق والأفكار أنه يكتفى بأسماء الأشياء بدل أن يشغل نفسه بالبحث عن أسباب الأشياء ، فهو يبحث عن أجوبة السؤال « ماذا ؟ » بدل أجوبة السؤال « لمـاذا ؟ » إنه يدرس التاريخ ، ولا يظن أن جميع التاريخ يتسبب عن حقائق الجغرافيا . وهو خبير فى النبات ويستطيع أن يأخذك إلى حيث ينبت أندر النباتات ، ولا يكلف نفسه مطلقا أن يتعجب ممـا عسى أن تكون عليه الأرض لو لم يكن لهـا هذا الرداء النباتى . وهو يهيم على وجهه فى أمسيات تسطع نجومها ، ويمـكنه أن يخبرك ، فى حديث ممتع شائق ، عن أسماء كل الأبراج من العذراء إلى العقرب ؛ لـكن إذا سألته لماذا لا يمـكن أن ترى الزهرة فى منتصف الليل ، فسوف يخبرك أنه لا يهتم بالتفصيلات العلمية . فهو لم يتعلم أن الأسماء ليست شيئا ، وأن إرضاء شهوة العين شىء تافه بالقياس إلى الرؤية الخيالية التى تعتبر « التفصيلات » العلمية أسسا مهمة لها ولا يمـكن الاستغناء عنها .

وإنى لواثق من أن معظم القراءة ليست فلسفية ؛ أى ينقصها العنصر الذى يثير شعر الحياة ويقويه أكثر من أى شىء آخر . فما لم ، وإلى أن ، يعد الشخص خطة للمعرفة ، ولتـكن مجرد صورة تخطيطية ، فإن قراءته حتما لن تـكون فلسفية . ويجب عليه أن يصل إلى فـكرة ما عن العلاقات الداخلية بين فروع المعرفة المختلفة ، قبل أن يتمكن من إدراك الفرع الذى يتخصص فيه إدراكا صحيحا . وإذا لم يكن قد رسم خريطة مجملة للمعارف ، يستطيع أن يضع عليها ، أى نوع من المعرفة يأتى إليه ، مهما كان ، فى مكانه منها ، ويستطيع أن يتتبع عليها علاقة كل جزء فيها بكل جزء آخر ، فإنه بالتأكيد يضيع نسبة كبيرة من

مجهوده سدى . وهناك أعمال فلسفية معينة متى ما تمكن منها الانسان يظهر كأنها قد قامت له بعملية جراحية لإزالة الغشاوة عن عينيه ، لدرجة أن من كان أعمى ، ثم قرأها ، يرى ، بعد ذلك ، مباشرة ، السبب والأثر يعملان داخليا وخارجيا فى كل مكان . وبعبارة أخرى ، تطبع على مخه خريطة تامة لإقليم المعرفة .

ومن هذه الأعمال الفلسفية ، كتاب « البادىء الأولى » لسبنسر . غير أنى أعرف أنه لا فائدة من أن أنصح الناس بقراءة كتاب « البادىء الأولى » لأنها مرهوبة بسبب جرسها ، وهى تكلف الانسان مايكلفه كرسى فى شرفة المسرح. لكن إذا قرءوها فما أروعها من حصيلة عقلية فى سنوات قليلة ! وهم ، إذا قرءوا مقالات منفصلة كتلك التى عن « الطرق والكيفية » أو « تكوين العلم » فإن الضياء السحرى ، وهو القوة التى تؤلف بين الأشياء وتجمعها فى تركيب منسجم ، يحتمل أن يوهب لهم . وعلى أية حال عدم وجود مثل هذا القياس التنظيمى الذى ينشأ عنه التعادل والانسجام ، يشرح بوضوح تام كثيرا من أنواع الجرد المحزن .

وإن الطريقة التى بها يمكن لشعاع واحد من الضوء ، أو للمحة ثمينة واحدة أن تنق وتنشط كل الحياة العقلية لدى الشخص الذى يستقبلها ، لمن أعجب بالظواهر العقلية وأعظمها جلالا . وبعض الناس يبحثون عن ذلك الضوء ولا يجدونه مطلقا ، لكن معظم الرجال لا يبحثون عنه أبدا .

إن أهم سبب للجرد المحزن لا يزال باقيا وهو أبسط بكثير جدا من ذلك السبب الذى عالجناه الآن . إنه يتبلر فى عدم التأمل . فالناس يقرءون ، ويقرءون ، ويقرءون ، غير واعين ، المزلة التى يقعون فيها بزعمهم أنهم يستطيعون ، بدون

بذل أى مجهود أكثر ، أن يتمثلوا الزبدة الجوهرية التى أجهد المؤلف نفسه لينقلها لهم . والحقيقة أنهم لا يستطيعون . والدليل على أنهم لا يستطيعون ظاهر فى كل وقت من حياتهم . وإنى لأقرر أن الإنسان إذا لم ينفق فى التفكير الجاد الحقيق فيما قرأه وقتا على الأقل مساويا للوقت الذى أنفقه فى القراءة ، فإنه ، بكل بساطة، مهين للمؤلف الذى قرأ له . وإذا لم يستسلم للتعب الذهنى والعاطفى الذى يعتريه فى ترتيب الأفكار التى وصلت إليه ، وفى التأكد من أن سورة العواطف التى يبغى المؤلف أن يوصلها إليه قد انطبعت تماما على صفحة نفسه — حينئذ تكون القراءة لديه ترجية سارة لوقت الفراغ فقط ، وليست شيئا آخر غير ذلك . هذه حقيقة مؤلمة ، لكنها حقيقة . وهى مؤلمة لأن التأمل ليس تمرينا شائعا . فإذا سألك صديق عما فعلته فى الليلة الماضية وأجبته بقولك « كنت أقرأ » فسوف يتأثر هو ، وستكون أنت فخورا . لكن إذا قلت له : « كنت أتأمل » ، فسوف يوجد لديه ميل إلى الابتسام ، وسوف يوجد لديك ميل إلى الخجل . إنى أعرف هذا ، وأشعر به بنفسى . (ولا أستطيع أن أقدم أى توضيح له) . لكن ذلك لا يزعزع اعتقادى أن عدم التأمل هو الأصل الأساسى للجرد غير السار .

الفهرس

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية

باشراف الأستاذ عمر الدسوقى

رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

صدر منها :

١ — قصة الملكية فى العالم : من سلسلة حياة المجتمعات تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى ، والدكتور حسن سعفان

٢ — الرومانتيكية : من سلسلة المذاهب الأدبية الكبرى
تأليف الدكتور محمد غنيمى هلال.

٣ — زرادشت : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر.

٤ — كونفشيوس : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سعفان.

٥ — الفكاهة فى الأدب العربى (جزآن) : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى .

٦ — قصة الزواج والعزوبة فى العالم : من سلسلة حياة المجتمعات
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى.

٧ — تاريخ الفكر الاقتصادى : من سلسلة الاقتصاد السياسى
تأليف الدكتور لبيب شقير.

٨ — بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الدكتور صوفى حسين أبو طالب .

٩ — ابن خلدون ، منشىء علم الاجتماع : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى.

١٠ — السرقات الأدبية : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور بدوى طبانة .

١١ — الحريات العامة بين المذهب الفردى والمذهب الاشتراكى : من سلسلة الاقتصاد والسياسة : تأليف الدكتور طعيمة الجرف .

١٢ — أبو حيان التوحيدى : (جزآن). من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى.

١٣ — هوميروس : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب تأليف الدكتور محمد صقر خفاجة .

١٤ — حقوق الإنسان فى الإسلام : من سلسلة الدراسات الإسلامية تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى .

١٥ — تهذيب الحيوان للجاحظ (الجزء الأول) : من سلسلة الأدب والنقد تأليف الأستاذ عبدالسلام هارون .

١٦ — بوذا : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب تأليف الأستاذ حامد عبدالقادر .

١٧ — مونتسكيو : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب تأليف الدكتور حسن سعفان .

١٨ — أبو حنيفة والقيم الإنسانية فى مذهبه : من سلسلة الدراسات الإسلامية تأليف الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى .

١٩ — مع الصحفى المكافح: « أحمد حلمى » : من السلسلة التاريخية تأليف الدكتور أحمد أحمد بدوى .

٢٠ — تهذيب الحيوان للجاحظ (الجزء الثانى) : من سلسلة الأدب والنقد تأليف الأستاذ عبد السلام هارون .

٢١ — من قضايا اللغة والنحو : من سلسلة الأدب والنقد تأليف الأستاذ على النجدى ناصف

٢٢ — الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط : من السلسلة التاريخية تأليف الدكتور ابراهيم احمد العدوى .

٢٣ — الذوق الأدبى : من سلسلة الأدب والنقد — تأليف الدكتور على محمد الجندى